الفصل الثالث

نظم غريبة لدي قبائل وجماعات

- فى قبيلة «العبابدة» ... يحظر على أسرة العروس حضور احتفالات الزواج.
- فى قبائل «الودابى» ... لا يحق للمرأة المرضعة أن يصافحها رجل أو يلمسها.
- فى قبائل «الرشايدة» ... يحترم الزوج والدة زوجته ولا يرتفع صوته فى حضرتها.
- فى قبيلة «الهيمبا» ... الرئيس يستعين فى اتخاذ قراراته بأرواح الأجداد.
- فى قبيلة «الليبابور» ... المهر عدد من الأبقار والأغنام أو الأفدنة المزروعة.
- فى قبيلة «السيدامو» ... اشتراط حفظ الفتيات لأجزاء من القرآن قبل الزواج.
- ..... ونظم أخرى.

obeikandl.com

• قبيلة «العبابدة»[1]:

فى قبيلة «العبابدة» يتميز الزواج مثل أغلب القبائل الأخرى بأنه مبكر جداً، بل أحياناً يتم قبل أن تبلغ الفتاة، وغالبًا ما يكون الزواج بين أبناء العم أو الخال. وليس للزوجة رأى فى اختيار زوجها، وليس للزوج أيضاً رأى فى اختيار زوجته الأولى، ولكنه يختار بعد ذلك زوجاته الثانية والثالثة والرابعة.

ويأتى الزواج عادة بعد ترشيح شيخ القبيلة، وخاصة عندما تكون هناك فتاة عانس أو أرملة.

وجدير بالذكر أن عاطفة الحب لا تُقابَل بالسخرية أو الاستهجان، ولكن على العكس، إذا حدثت يتم الزواج بين الحبيبين وتباركه القبيلة... ولا توجد فترة خطبة يتبادل فيها الخطيبان الزيارات.

والمهر فى العادة يكون ناقة وجملاً، بالإضافة إلى بعض الماعز، «والشيلة» أى الهدايا، ويشير العريس بسيفه إلى المكان الذى يريد الإقامة فيه.. ويقوم

(١) العبابدة قبيلة تعيش خلف السد العالى بجمهورية مصر العربية، ولكنهم قوم رُحَّل غير مستقرين، يبلغ عددهم حوالى خمسة عشر ألف نسمة، يعيشون على رعى الإبل، والماعز، وبرغم قسوة الحياة وخشونتها فإن حياتهم لا تخلو من مسحة الزينة والجمال.
ومن المعروف أن المجتمعات القبلية الإفريقية تشترك جميعها فى مفهومها حول الزينة والجمال؛ ولهذا تلجأ إلى «الشلوخ» وهو إحداث قطع بالموس على جلد الوجه، وأماكن أخرى، وكذلك الوشم، ووضع الحلى فى الأنف، والشفاه، والأذن، وتشترك المرأة والرجل فى ذلك.

بتوزيع الهدايا على أهل العروس، وهى تشمل فى العادة روائح وأساور من الخرز، وأحذية من البلاستيك.

وعند غروب الشمس تذبح الذبيحة ويُطعم منها الضيوف... ويتم تلقيب العريس باسم «الأمير» طوال فترة الفرح.

ويقوم «الأمير» ببناء «الخيشة»[1] التى سوف يقيم فيها بمعاونة بعض أصدقائه، ويذهب والد العريس مع بعض الشيوخ الكبار السن إلى هذه «الخيشة» لعقد القران.

وأثناء عقد القران تأخذ الوصيفات «العروس» ويقمن بالمرور حول «خيشة» العريس سبع مرات وتسلم عليه... وهذه هى المرة الأولى التى يرى فيها كل منهما الآخر.

ومن المتعارف عليه أن يحظر على أسرة العروس حضور احتفالات الزواج، وإنما يظلون بمكنهم.

وأثناء عقد القران يقول والد العريس لوالد العروس: إننا نخطب فلانة لفلان على سُنة الله ورسوله، فيرد عليه والد العروس قائلا: «دى عورة». ويجيب والد العريس بالموافقة، ويبادر فيقول له: «دى عفشة». أى قبيحة فيوافق أيضًا، ثم تقرأ الفاتحة، وبذلك يتم عقد القران.

وعلى مدى أربعين يوماً لا يرى العروسان الشمس، حيث تذهب العروس إلى عريسها بعد الغروب، وتخرج من خيمته قبل شروق الشمس إلى بيت أسرتها لتعود إليه فى الغروب، وهكذا. ولا يغادر العريس خيمته طوال الأربعين يومًا.

---

(١) منزل الزوجية.

أما ظاهرة تعدد الزوجات فمن بين أسبابها عدم الإنجاب، أو انشغال الزوجة بالولادة وتربية الأطفال، ولكن يشترط لذلك أن توافق الزوجة الأولى، بل إنها تشارك فى اختيار الزوجة الثانية، وتصبح بمثابة رئيسة للزوجات، وتتسم العلاقة بينهما بالود... ولهذا فنادرًا ما تحدث حالات الطلاق، وإذا حدث ذلك فإن الرافض للحياة الزوجية يترك للآخر «الخيشة».

وتأخذ المرأة قيمتها من كثرة إنجابها؛ ولهذا فإن المرأة العاقر تخرج فى صحبة سيدة عجوز تُعرف بكثرة الإنجاب والسعادة فى حياتها، وذلك فى هلال الشهر العربى، وتنزل للبحر ثم تغطس سبع مرات، وتضربها السيدة العجوز بمحار البحر.

ويحكم القبيلة مجلس عرفى، وهم لا يلجئون للقوانين الوضعية، بل يعتبرون ذلك نوعًا من العار.

والمشاكل التى يناقشها هذا المجلس هى السرقة، أو الزواج والطلاق، ونادرًا ما يحدث اعتداء على عرض أو قتل.

أما بالنسبة لمسكن أفراد القبيلة فيتميز بالبساطة للغاية، وهو لا يزيد على «خيشة» تُقام فى بطن الجبل على هيئة كوخ هيكله من أغصان الشجر، وتوجد فيه قربة من جلد الماعز مملوءة بالماء، بالإضافة إلى بعض الأوانى المصنوعة من الألمونيوم للطهو، وتستخدم ثمرة القرع المفرغة لحفظ العطور، وثمرة الدوم الجافة لحفظ الكحل.

ولا توجد لديهم أى مصادر للإضاءة، ويعتمدون على إشعال النيران ليلاً للتدفئة والإضاءة، ولا توجد أسلحة نارية... أما السيف والخنجر فهما يستخدمان حاليا للتزين بعد أن اختفت الحروب بين القبائل[1].

(١) مجلة سيدتى الصادرة فى ٨/ ٤/ ١٩٩١ (بتصرف).

والمشروب المفضل لديهم هو «الجَنَبة»، وهو يشبة القهوة، ولقد عرفوا الشاى حديناً، ولكنهم يفضلون «الجنبة».

وعند الإصابة بالأمراض ـ مثل آلام الأسنان ـ يلجئون لِكَىٍّ أحد الشرايين، فإذا كان الألم فى الفك الأيمن يتم كَىُّ شريان فى اليد اليسرى، والعكس صحيح. ولعلاج الصداع يُدهن الجزء المصاب بدهن الضأن. أما المغص الكلوى فيعالج بصمغ الجبل. وارتفاع درجة الحرارة والحمى تعالج بِفَصْد الدم، وكذلك ضعف الإبصار.

ومن عاداتهم المتميزة مشاركة النساء الرجال فى الاحتفالات الموسيقية التى تأخذ شكلاً هندسيا فى البداية، حيث تتكون نصف دائرة من الرجال، بداخلها نصف دائرة من النساء، بداخلها نصف دائرة من الأطفال.

وعندما يحسن أحدهم الرقص يقولون له: «أبشر حبابك عشرة».

وهم يجيدون العزف على آلتى «الطمبور»، و«السمسمية».. وبعضهم يحفظ الأغانى المصرية، لكنهم يفضلون الأغانى السودانية[1].

ويمثل تمشيط الشعر أهمية قصوى لقبيلة «العبابدة»، وذلك برغم أنهم لا يستخدمون المرآة، بل إن طريقة تصفيف الشعر تدل ـ إلى حد كبير ـ على المكانة الاجتماعية. وعندما تولد الطفلة يزين شعرها ببعض الوَدَع والخرز الملون... وعندما تبلغ سن الزواج تستخدم «الشاوشاو»، وهى عقود طويلة من الخرز الملون، بالإضافة إلى أنها تستخدم الشعر المستعار من ذيول الأغنام لإطالة شعرها... وفى يوم الزفاف تفك الزوجة جدائل شعرها، حتى لا تتعقد الحياة الزوجية، مع العلم بأنه مكروه أن تترك المرأة شعرها بدون تمشيط فى أى وقت آخر.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

ولا تقل أهمية الشعر وتمشيطه للرجل عن المرأة، ويبدأ الاهتمام به أيضًا منذ الطفولة، فالطفل الصغير بمجرد ولادته يدهن شعره «بالودكه»، وهو نوع من الدهن. . . وعندما يبلغ الخامسة يحلق الشعر خلف الأذن. . . وفى سن العاشرة يمشط الشعر على هيئة جدائل مدلاة.

وعندما يصل الشاب إلى سن الزواج يضع فى شعره الخرز والودع، ويستخدم الشعر المستعار والجلود لإطالة هذه الجدائل. ويحلق الرجال الذقن والشارب فى حالة واحدة، وهى الحداد على أحد الأقارب من الدرجة الأولى، ويستمرون على ذلك على مدى أسبوع، أو أربعين يومًا.

وهناك عدة طرق لتجميل البشرة، وأهمها «الشلوخ»، وهى خطوط مرسومة على الخدود أو الجبهة، وتختلف الخطوط حسب كل قبيلة، وهى تؤدى إلى التفاخر والتأكيد على الحالة الاجتماعية.

ويبدأ رسم الخطوط بالنسبة للطفل وهو فى الخامسة من عمره. . . أما الطفلة فإن ذلك يبدأ وهى فى العاشرة من عمرها.

ويعتبر «الوشم» من أهم مظاهر تزيين الوجه، حيث يتم الدق بالإبر على الشفاه أو الأيدى، ثم يتم حشوها بالكحل الأسود، وهى تستخدم للتجميل لا للتميز.

ويلاحظ أنه فى الوقت الحالى بدأت بعض الفتيات فى رفض «الشلوخ» ولم يعد مظهراً للجمال، كما أن الشباب أصبح هو الآخر يرفض أيضاً هذا المظهر الاجتماعى. ولكن «الوشم» أو «الدق» لا يزال قائماً، وتتم هذه العملية فى الأسبوع الأول بعد الزفاف.

وتستخدم «الحناء» فى الوجه ومناطق أخرى من الجسم.

ويفضل «العبابدة» من بين المعادن الفضة والخرز بأنواعه[1]. والمرأة محظور عليها الخروج للتجارة أو رعى الإبل، أو حلبها، أو حتى ذبحها، وإنما عليها إقامة الخيمة، وجمع الحطب، ورعى الغنم فقط!

والتقاليد تقضى بقصر حلب الماشية على الرجال دون النساء... وأن يتم الحلب فى آنية من الجلد أو السعف تسمى «العمرة».

ولأنهم يتركون الإبل فى الصحراء تختلط بعضها ببعض، فإنه يَسِمُونَ الإبل، بمعنى أنهم يرسمون عليها رمزًا معينًا لكل قبيلة، حتى يتم التعرف عليها، وتستخدم طريقة الكىّ بالنار لعمل تلك الرموز.

والجدير بالإشارة أنهم يعيشون على الرعى كحرفة رئيسية. وفى كل عام يذهبون إلى أسوان أو السودان؛ ليبيعوا الإبل ويعودوا ومعهم الدقيق... وتسمى قافلة الإبل «دبوكة».

وتعد الإبل مصدر الثروة وتحديد القيمة الاجتماعية الحقيقية، بل أكثر من ذلك تستخدم كمهور عند الزواج، كما سبق أن أوضحنا.

ويلاحظ أن انتشار زواج الرجل العبادى من نساء وادى النيل كان له الأثر الكبير فى عملية التغيير التى حدثت أخيرًا فى أنماط حياتهم، مثل الأثاث، والزينة، والتعود على أنواع جديدة من الطعام.

* * *

(١) المرجع السابق (بتصرف).

• قبائل الودابى[1]:

فى قبائل «الودابى» بالنيجر تعيش الأسرة الواحدة فى معسكر خاص بها، يضم بيت رأس العائلة وزوجته، وبيت أبنائه وزوجاتهم. وترتيب البيوت المشيدة من غصون الشجر يكون من الجنوب إلى الشمال. فرأس العائلة يقيم مع الأم فى أقصى بيت فى الجنوب، وبعد ذلك بيت أكبر الأبناء، فبيت الابن الذى يليه، وهكذا.

وعندما تحمل الزوجة يتعين عليها أن تغادر بيت زوجها من الشهر الخامس من الحمل لتقيم مع أمها طوال مدة الحمل الباقية، ومدة الرضاع التى تستمر عامين.

وطوال هذه الفترة تحيط أمها عنقها بعقد جلدى يكون علامة العفة التى تمنعها حتى من مخالطة زوجها.

---

(١) قبائل «الودابى» هى قبائل دائمة التنقل والترحال، تمثل أقلية ضمن مجموعة عرقية تسمى «فولانى» تعيش فى النيجر، الواقعة جنوب ليبيا والجزائر، غربى تشاد وشرقى مالى. «والنيجر» بلد متعدد المناخات والأعراق، وأرضه تتباين طبائعها من منطقة لأخرى. ففى الشمال صحراء قاحلة، وفى الجنوب أرض معشبة يكثر سقوط الأمطار عليها، وتنمو فيها «السافانا»، ويسكنها المزارعون.

وهذه القبائل يتميز أبناؤها ببشرة برونزية، وقامة رشيقة، وأطراف طويلة، وملامح رقيقة، وهم يتكلمون لغة تسمى «الفلفلدى»، بالإضافة لإجادتهم لغة «الهاوسا» ومعرفتهم بلغة الطوارق، ومن الجدير بالذكر أن كلمة «الودابى» معناه الحرفى: شعب المحظورات، حيث إن حياة «الودابى» ـ رجلا كان أم امرأة ـ تحكمها تقاليد صارمة.

وبعد فطام وليدها تفاجئها أمها ذات صباح بنزع العقد الجلدى من حول عنقها.

وتظل الأم الصغيرة فى نهاية العامين فى حالة شوق وترقب للانتهاء من حالة العزلة التى تفرض عليها الابتعاد عن زوجها، وتظل تنتظر يد أمها وهى تمتد لنزع العقد من جيدها، لكن الأم تحرص على أن يأتى الأمر مفاجأة.. أى أن يأتى فى لحظة تكون ابنتها مشغولة بأمرها. وعندما يأتى الموعد المحدد تمتد اليد السمراء النحيلة المدربة فى حركة خاطفة كأنها مخلب الصقر لتنزع العقد الجلدى، فتثير المفاجأة فى نفس ابنتها مزيجًا فريدًا من الدهشة والخوف والفرحة الغامرة.

ويتعين على الأم الصغيرة عندئذ أن تختفى عن العيون يومًا كاملاً، تبدأ بعده مراسيم زفاف جديد يعود بالزوجة إلى زوجها. وعندئذ فقط يكون لها ولزوجها بيت منفصل عن بيت الأب رأس العائلة.

والتقاليد الغريبة تحكم كل جوانب حياة أبناء قبائل «الودابى»... فعندما يتحدث إنسان إلى آخر لا ينظر فى عينه مباشرة، بل ينظر بعيدًا وكأنه لا يبالى به.

وعندما يصل الضيوف لزيارة أحد أصدقائهم، فإنهم يلقون بالسلام وعيونهم تنظر إلى بعيد..

ولا بد أن يقتربوا من المعسكر أو من البيت الواحد من جهة الغرب، عندئذ يدعوهم صاحب البيت إلى الدخول والجلوس بجواره على الحصيرة التى يفترشها طوال وقت فراغه...

ويضع الضيوف سيوفهم على الأرض، ويخلعون قبعاتهم الكبيرة ذات الحواف العريضة، ويخلعون صنادلهم ويجلسون بجوار صاحب البيت لتناول الشاى.

ولشرب الشاى طقوس... فصاحب البيت يناول كل واحد من الضيوف كوبه على ثلاثة أدوار:

فى الدور الأول يكون أسود «صعباً كالحياة».

فى الدور الثانى أضعف قليلاً ليكون «حُلْوًا كالحب».

وفى الدور الثالث يكون «للمزاج الرائق».

ومن حق الضيف أن يعتذر عن الدور الأول... فإذا قبل بشاى الدور الثانى صار لزامًا عليه أن يشرب الدور الثالث.

أما بالنسبة للعلاقة بين الرجال والنساء فى هذه القبائل فإنها بالغة الغرابة، فبرغم أن الرجل هو السيد المطاع، وبوسعه أن يتزوج مَثْنَى وثُلاث ورُباعَ، لكنه هو الذى يتجمل للمرأة، وهو الذى يتعين عليه أن يفتنها بجماله، وأن يحذبها إليه، ولهذا السبب يقضى الرجال جزءاً كبيراً من وقتهم فى التزين والرجل إذا لم يكن وسيمًا فهو يعوض الناقص من وسامته بشىء يسمونه «توجو»، وهو حلاوة الحديث، وحُسن التصرف والظرف.

وهم يقولون إن هذا كله يتحقق لأى رجل بشرط واحد، أن يتحدث بقلبه وليس فقط بلسانه.

ويتعامل «الودابى» تجاريا[1] مع المجموعات العرقية الأخرى التى تسكن النيجر، مثل المجموعات الأخرى من «الفولانى» وأعراق مثل «الهاوسا» و«الطوارق».... ولا يشعر «الودابى» باحترام إزاء أى من المجموعات العرقية التى تشاركهم العيش فى النيجر، باستثناء الطوارق... فينظرون بازدراء إلى «الهاوسا» وأمثالهم، لأنهم يعيشون داخل منازل لها أسقف وأبواب ونوافذ، فالحياة فى مسكن كهذا تصيب الإنسان ـ فى اعتقادهم ـ بالاختناق، والاكتئاب، والجبن، والكسل.

(١) المعاملات التجارية تستخدم فيها عملة تعرف باسم فرنك «سنيا». والفرنك الفرنسى يساوى خمسين فرنكاً «سنيا».

وهم مزارعون، لا يجرءون على مغادرة مناطق زراعتهم لاقتحام المجهول ومواجهة الصحراء.

ومن العادات التى تتميز بها قبائل «الودابى» احتفالهم بموسم الأمطار، حيث تتجمع الأسر، ويلبس الرجال أجمل ما لديهم من ثياب، ويأتون على ظهور الجمال فى مواكب طويلة، يستعرضون سرعة دوابهم وما عليها من زينة.

وفى بعض الاحتفالات يشارك الطوارق إخوانهم فى قبائل «الودابى»، فيأتى الرجال على خيولهم، والنساء على الحمير التى غُطيت ظهورها بأغطية جلدية ملونة.

وفى هذا الموسم تتلاقى الأسر التى لم تر بعضها البعض طوال العام، حيث يكون فصل الجفاف الطويل فصل عزلة كاملة...

وتتفق الأسر التى تربط بينها روابط القرابة على اللقاء فى احتفالات «الورسو» التى تتم فى أثنائها احتفالات الميلاد والزواج والختان.

وفى هذه الاحتفالات تُذبح الذبائح وتتقاسم العائلات لحمها، وتستعرض النساء ما جمعته من حلى ومقتنيات جميلة طوال العام.

وعندما تخرج كل واحدة ما لديها من مقتنيات تتغنى الباقيات بجمالها وبرقة ذوقها. ويكثر الغناء والرقص، وتناول الطعام، لكن كل هذه الفرحة ليست أكثر من ومضة تتوهج لفترة عابرة، ثم ما تلبث أن تنطفئ ليعاود «الودابى» حياتهم الخشنة التى فضلوها على حياة الدعة والاستقرار.

أما بالنسة لأسلوب تعاملهم مع أبنائهم فتحكمه تقاليد معينة، فالطفل يعيش سنوات عمره الخمس الأولى فى حرية كاملة، ويتركه أبواه بدون أى تعليم أو توجيه أو نصح. والتدخل الوحيد يكون بثقب أُذُنَى البنت بين الثانية

والرابعة من العمر لتؤهل للتزين بالأقراط، كما يتم ختان الولد بين الثالثة والثامنة من العمر. ومع بلوغ سن الخامسة يبدأ إعداد البنات لحياة الزوجية والأمومة، وإعداد الصبيان لحياة الرعى الشاقة.

هذا، ويتعين على الرجل والمرأة أن يتعاونا، خاصة فى شهور الجفاف التسعة، حتى تبقى العائلة بدوابها وممتلكاتها الضئيلة على قيد الحياة إلى أن يحين فصل النماء التالى[1].

ومن أغرب العادات والتقاليد لدى قبائل «الودابى» تربية الطفل، حيث يحظر على الأب والأم التحدث مباشرة مع طفليهما الأول والثانى، أو مناداتهما بالاسم، وبالمقابل فإن الأقرباء الآخرين يغدقون على هذين الطفلين المحبة والتعاطف.

ولا يحق للمرأة المرضعة أن يصافحها رجل، أو حتى يلمسها، وهذه القاعدة تنطبق أيضًا على زوجها طالما هى لم تفطم طفلها بعد.

ولا يسمح لأى أحد من أبناء عشائر «الودابى» لدى تحية ودابى مثله، بأن ينظر إليه مباشرة فى عينيه، وإنما عليه أن يحول عينيه إلى اتجاه آخر إجلالاً وتوقيرًا. وليس بمقدور الرجل أن يمسك بيد زوجته علنًا أثناء النهار، أو يناديها باسمها، أو يتحدث إليها حديثاً تمازجه عاطفة الرجل لامرأته.

وبالنسبة للزواج فإنه يتم ترتيبه بين أبناء العمومة منذ نعومة الأظفار، لكن الرجل إذا اتَّخذَ زوجة أو زوجات أخريات فعليه اختيارهن من عصب مختلف.

ويتميز «الودابيون» بمجموعة من الصفات التى تجعلهم جديرين بالإعجاب حقا، فهم يعلون من شأن التواضع، والصبر، والصمود، وعلو الهمة، وبُعد

(١) مجلة الشرق الأوسط الصادرة فى ٩/ ١٠/ ١٩٩١ (بتصرف).

النظر، والكرم، حيث يكرمون وفادة الغريب مهما طالت إقامته بين ظهرانيهم، ومهما كانت ظروفهم المادية عسيرة، فعليهم إكرامه حتى ولو كانوا له من الكارهين.

كما أن توحدهم بالطبيعة جعلهم قومًا قنوعين، لا يعرفون السرف ولا الإسراف... ولا تعرف مجتمعاتهم جرائم القتل أو الاغتصاب أو السرقة أو الاعتداء البدنى بينهم، فكل الخلافات يحلها كبير العشيرة، ويرضى الجميع بما يحكم به كائناً ما كان[1].

ومن الملفت للانتباه أن لكل حيوان اسمًا، وتعد قطعان «الزيبو» التى يرعونها هى البؤرة التى يدور حولها النشاط اليومى، فعند الفجر يتم الخروج بها إلى المرعى وسقيها، وعند المغيب تعود إلى المخيم حيث تحلبها النسوة.

هذا، ويبدأ الطفل العمل فى الرعى وهو فى السادسة من عمره، ويقتصر العمل بالرعى على الذكور. وحرصًا على القطعان يبيت الرجال ممن لم يتخذوا زوجات قرب القطيع لحراسته من شرور الليل وطوارقه.

ويحيا «الودابى» على الألبان ومنتجاتها، ونادرًا ما يذبحون حيواناتهم، وإذا تمت عملية ذبح حيوان[2] فإنها تتم وفق طقوس حافلة بالمحرمات، وفى المناسبات المهمة فقط.

وخلال الشهور الحارة من كل عام التى تمتد لديهم من ديسمبر حتى يونيو، يرعى الودابى قطعان «الزيبو» على مهل عبر أنحاء جنوبى النيجر،

---

(١) مجلة الفيصل فى عددها الصادر فى يونية ١٩٩٣ (بتصرف).

(٢) يذكر بعض الرحالة أنه من المذهل حقا أنه إذا ما ذبح حيوان فإن باقى القطيع يبدى رد فعل غاضب، وتأخذ قطعان «الزيبو» المعروفة بقرونها الطويلة فى حفر الأرض بقرونها وحوافرها طوال الليل، وإصدار أصواتها الحزينة والغاضبة على نحو لا يمكن أن يوصف إلا بأنه رهيب.

منقسمين إلى مجموعات. أما مع وصول أمطار الصيف، فإنهم ينطلقون شمالاً إلى منطقة تعرف باسم «الأرض الصالحة».

وجدير بالإشارة أنه عند سقوط المطر لأول مرة يدق على الطبول لتنتشر أصداؤها وتعلن بشائر وصول الخير... بعدها يتم تحديد المكان الذى سيقام فيه المهرجان السنوى المعروف باسم «جيروول» وموعد الاحتفال... وسرعان ما تتوافد عشائر «الودابى» إلى المكان الموعود فى الزمان المحدد، وتضرب الخيام فى نسق تحدده التقاليد، وذلك فى شبه دائرة واسعة ممتدة فى شكل قرون ثور هائل.

ويتحول هذا المهرجان إلى مناسبة يبدى فيها الرجال قوتهم وفتوتهم وحُسنهم، فالرجال هم الذين يأخذون زينتهم لا النساء.

ويتم التركيز على بياض العيون والأسنان، وعلى طلاء الوجوه والملابس وأغطية الرأس والحلى[1].

ويشرع الرجال فى الرقص، فى حين تتجمع النساء للمشاهدة، ويشرف كبار السن على التأكد من أن الرقص يُؤدى بشكل رفيع وراق وفقاً للتقاليد.

وفى المساء الأخير من المهرجان يتم اختيار أجمل[2] رجال العشائر، ويرتدون أفضل ملابسهم، وتطلى وجوههم باللون الأحمر، وتجمل العيون والشفاه باستخدام الكحل والفحم.

وتبدأ حمى الرقص فى اجتياح الجميع؛ ليصبح الرقص فى نهاية المطاف مباراة فى الصبر وطول النفس، والقدرة على الصمود والثبات، ويتدفق العرق من الوجوه إلى الصدور مع تسارع إيقاع دقات الطبول.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) يعتبر الرجال هم الأكثر ولعاً بالزينة وأناقة الملبس، حيث يعدون طواويس القبيلة الذين يفعلون الأعاجيب، خاصة فى الاحتفالات بالمواسم المطيرة، للفت الأنظار إليهم.

ويتميز هذا الرقص بتحرك الأجسام بدون أن تتحرك أقدام المتسابقين، وتستمر الإيماءات بهدوء، ثم تشتد فى عنف.

وفى كل ساعة أو نحوها تتجه اثنتان من النساء اختارتهما الأُخريات لكى تتأملا الرجال عن قرب، وتعودا لتخبرا المسنين المحكمين بما اختارتاه.

وجدير بالذكر أن المسنين من أهل القبيلة ممن يقومون بدور التحكيم لا يعتبرون هذا الاختيار نهائيا، بل تنبيهاً للآخرين بأن يقوموا بجهد أكبر، فتستمر الرقصة ويزداد جهد المتسابقين... إلى أن تتفق النساء على الفائز الذى يقوم بدوره باختيار امرأته من بين جميع النساء. ومع إطلالة أول ضوء النهار ينتهى المهرجان وتنفض عشائر «الودابى» إلى رحاب الصحراء الكبرى من «تشاد» إلى «السنغال» لتبدأ عاماً جديداً من حياتها المعتادة[1].

* * *

(١) المرجع السابق (بتصرف).

obeikandl.com

• قبائل الرشايدة[1]:

«الرشايدة» قبائل تعيش فى السودان، لهم عادات وتقاليد فى الزواج مازالوا يتمسكون بها، حيث يتم الزواج داخل القبيلة فقط، ويفضل أبناء العم. وعلى العريس تقديم شبكة عبارة عن ناقة صغيرة تتعهدها الخطيبة حتى تكبر. ويقدم الخطيب مهرًا يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف جنيه سودانى إن كانت العروس تنتمى لأسرة متوسطة، فى حين يصل إلى مائة ألف جنيه إن كانت من فرع عالٍ من فروع القبيلة.

ويوظف المهر لإعداد بيت الزوجية، ويكون نصيب الأم والأب محدودًا إن أرادا أن يكون لهما نصيب من المهر.

وبرغم ارتفاع المهور فالرجل الرشايدى يمارس حقه الشرعى فى تعدد الزوجات؛ لتنمو أسرته عدديا، وبذلك ترتفع مكانته الاجتماعية.

وبعد تحديد موعد الزواج، تجهز العروس وصديقاتها نسيج الصوف اللازم لبناء خيمة الزوجية، ثم يأتى فتيان الحى فى اليوم السابق ليوم الزفاف،

(١) «الرشايدة» هم آخر الهجرات العربية إلى السودان، إذ قدموا من الجزيرة العربية بفروعهم الثلاثة (البراهنة، والبراطيخ، والزنيمات) فى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى، ومارسوا حياة الرعى فى منطقة البحر الأحمر، ولكن موجات الجفاف والتصحر أجبرتهم على الترحال مع إبلهم إلى السهول والمرتفعات فى شرق السودان، ويعملون الآن جاهدين على التكيف مع حياة الاستقرار الجديدة.

وينصبون الخيمة، ويحتفلون برقصات السيف، وإطلاق النار، ومسابقات الهجن، فيوضع على النار إناء كبير مملوء بقطع كبيرة من لحم الذبائح، ويأخذ أول المتسابقين أفضل تلك القطع.

وتحتفل النساء فى جانب آخر من الدار بالغناء. ويتواصل الاحتفال فى اليوم التالى حيث تزف العروس بثوب أحمر لامع تزينه خطوط من قماش موشح مختلف الألوان... وترتدى البرقع، ويكون بمثابة إشارة تعنى أنها بدأت شهر العسل الذى يتواصل عامين تامين.

أما الفتيات فى سن الزواج فيكتفين بالنقاب فقط، فى حين ترتدى كبيرات السن جلباباً أسود من فوقه تتدلى الطرحة والنقاب.

وتتميز العلاقة بين الزوجين بالود والاحترام... وعند نشوب خلاف بين الزوجين تذهب الزوجة إلى بيت والدها، ثم يجتمع كبار أهلها، فإن كان الزوج هو المخطئ فعليه أن يرضيها بهدية من الماشية أو الملابس وتسمى هذه الهدية اسم «المخلاص»، وتقدم للزوجة اعترافًا منه بخطئه فى حقها.

ومن السمات المميزة الحميدة أن يحترم الزوج والدة زوجته التى يناديها بـ «عمته»، فيقبل رأسها عند التحية، ولا يرتفع صوته فى حضرتها. وينفق عليها إن كانت فى حاجة إلى ذلك.

وعندما يفقد «الرشايدة» أحدهم لا تنوح نساء «الرشايدة» عليه، بل تبكيه أسرة المتوفى فقط... ويشاركهم أهل الحى بعبارات الرضا بالقضاء والقدر.

وهناك بعض العادات المتميزة للرشايدة، منها:

أنه عند الإنجاب يأتى الزوج بخروفين للولد، وواحد للبنت، وتُقام احتفالات التسمية للذكر بعد مرور سبعة أيام وحتى اليوم العشرين من الميلاد... ويتم حفل تسمية البنت فى اليوم الخامس عشر.

وفى حالة الضيافة عندما يطرق «الرشايدى» دارًا يهرع الكل لاستقباله، ويتنازعون شرف ضيافته. ويعد صاحب أقرب خيمة هو الفائز بإكرام الضيف.

أما فى حالة الاستجارة، فإذا دخل قاتلٌ بيت أحد «الرشايدة» فإن صاحب الدار يجيره بالبقاء معه لعشرة أيام، خلالها لا يحق لأهل القتيل الاعتداء عليه حتى تعقد حلقات كبار رجال القبيلة لإنهاء المشكلة بالاتفاق على الدية أو القصاص.

وفى حالة القرض، إذا لم يسدد المدين ما عليه من دَيْن، فلا يتردد الدائن فى عقل ناقته أمام أحد منازل الحى حتى يعقد مجلس الكبار بجلسة يصدر خلالها أمر مقاضاة المدين، ويأمرونه بدفع غرامة قد تصل إلى قمية الدين الأصلى[1].

* * *

(١) مجلة سيدتى فى عددها الصادر فى ٧/ ١/ ١٩٩١ (بتصرف).

obeikandl.com

• قبيلة الهيمبا[1]:

استطاعت قبيلة «الهيمبا» الحفاظ على نمط حياتها وتقاليدها بلا تغيير حتى الآن، ومن ذلك مستوطناتهم وقراهم التى تتكون من عدة أكواخ منظمة على شكل دائرة واسعة، وتوجد حول كل كوخ دائرة من أفرع الأشجار الشائكة، وذلك للحماية من الحيوانات والهوام.

وكل قرية تضم عدداً من أفراد القبيلة لا يزيد على الخمسين، وبعض هذه المستوطنات لا يضم أكثر من عشرين إنساناً يعيشون فى حماية عدد قليل من الرجال لا يزيد على ثلاثة، ويرأسهم «رئيس» مسئول عن رعاية كل أفراد المستوطنة، ويقوم باتخاذ كل القرارات الهامة بخصوص الجماعة، مثل الرحيل إلى مكان آخر تتوافر فيه المياه، أو عقد زواج بعض أفراد جماعته.

ولما كانت القبيلة تؤمن ببعض الأساطير القديمة، فإن الرئيس يستعين فى اتخاذ قراراته بأرواح الأجداد.

(١) يتوزع أفراد وجماعات القبيلة على «نامبيا» و «أنجولا»، ولكن الأغلبية حوالى سبعة آلاف نسمة يعيشون فى «نامبيا»، فى حين يعيش ثلاثة آلاف نسمة فى «أنجولا»، وتعيش القبيلة حياة البدو الرُّحَّل، وتعتمد فى معيشتها على رعى الماشية، وتعتبر المستوطنات الصغيرة التى يقيمها أفراد القبيلة مستوطنات مؤقتة؛ لأن الأنهار الصغيرة التى تتكون خلال موسم الأمطار سرعان ما تختفى بجانب بعض آبار المياه القليلة التى تجف أحياناً لتترك وراءها صحراء قاحلة... ولا يوجد مصدر ماء دائم إلا ما يوفره نهر «كونينى» فى هذه الأرض الشاسعة التى تبلغ نحو ثلاثين ألف كيلو متر مربع؛ ولذا ترحل القبيلة شمالاً حيث يقع النهر؛ لتتركز جماعاتها على ضفتيه.

ومن السمات التى تتميز بها قبيلة «الهيمبا» أن ملكية الماشية هى التى تفصل بين الطبقات الاجتماعية، أى تفصل بين «الأوفاهونا» أى طبقة الأغنياء، و «أوفاستونا» أى طبقة الفقراء، و«نوتجيمبا» أى طبقة المعدمين الذين لا يملكون أية ماشية.

وتعد رءُوس الماشية هى العملة الرئيسية فى المبادلات التجارية التى يحصلون من خلالها على الذرة والسكر والمشروبات وغيرها من الاحتياجات اليومية.

كما أن رءُوس الماشية هى التى تُدفَع عقابًا على الجرائم، فإذا قتل شخص امرأة دفع ديتها ٢٥ بقرة، فى حين أن دية الرجل ١٥ بقرة.

وإذا اعتدى رجل على امرأة دفع لأهلها ست بقرات، وكذلك تُقدم الماشية كأضحيات فى مناسباتهم الدينية لإرضاء أرواح الأجداد، أو لإبعاد الشياطين، والأمراض، أو للتنبؤ بالأحداث الهامة الآتية.

ومن عاداتهم الاجتماعية المتميزة اجتماع العائلات حول النيران طلباً للدفء فى الليالى الصحراوية الباردة، يأكلون كعيكات صغيرة من الذرة صنعتها النساء أثناء النهار. ويتم ذلك فى كل ليلة، ومع غروب الشمس، فتلمع النيران فى المستوطنة، وتنعكس على أدوات الزينة التى يرتديها أفراد القبيلة؛ لتصنع لوحة جمالية خلابة نادرة.

ومن الجدير بالذكر أن أدوات الزينة يصنعونها من قطع النحاس والحديد والعظم، ويحيطونها بخيوط جلدية، ويبالغ بعض أفراد القبيلة فى صنع أدوات الزينة، حتى إن بعضهم يحمل منها ستة كيلو جرامات.

وبالطبع هناك أدوات للزينة مخصصة للرجال، وأخرى للنساء، وثالثة للأطفال.

وبعض هذه الأدوات يتوارثها أفراد العائلة جيلاً بعد جيل، ولا يتخلون عنها أبدًا.

هذا، وتستخدم الملابس والزينة تعبيراً عن الوضع العائلى للفرد فى كثير من الأحيان، وكذلك تصفيفة الشعر. فالطفل مثلاً، يحلقون شعره كله ما عدا الجزء الأعلى من رأسه، ويتركون شعره الباقى ينسدل فى خصلة رفيعة وطويلة مثل تسريحة «ذيل الحصان». وهذه التسريحة تعبر عن أن الطفل لم يصل إلى سن الزواج.

وفيما بعد، عندما يصل الطفل إلى سن الشباب، تفصل الخصلة الواحدة إلى خصلتين، إشارة إلى أنه يمكن الآن أن يكوّن أسرة عمادها اثنان: رجل وامرأة. حينئذ يستعد الشاب من قبيلة «الهيمبا» لوضع غطاء خاص بالرأس يسمى «أونديمبو» عندما يتم زواجه.

ولوضع هذا الغطاء طقوس معقدة، ويقوم بتنفيذه صديق للعريس عبر ساعات طويلة، حتى يتكون شعر العريس فى شكل مثلث. وبعد أن يكتمل هذا المثلث يدهن الشعر بكمية من دهن «الثور»، وعندما يجف الدهن يوضع غطاء الرأس. وعلى الزوج أن يستمر فى ارتداء هذا الغطاء طوال حياته.

أما بالنسبة للمرأة، فإن تصفيفة شعرها، وغطاء رأسها لها تقاليدها أيضاً، فالبنت تجمع شعرها فى خصلة تنسدل على جبينها... وعند بلوغها سن الزواج تنقسم هذه الخصلة إلى اثنتين.

وعندما يقترب زفافها على عريسها تفك خصلتيها وتترك شعرها يندسل فى خصلات كثيرة، مدهوناً بالشحم البقرى، ثم تزين رأسها ببعض الزينات الجلدية.

وتتوزع مهام العمال على أفراد القبيلة الذين يستيقظون من نومهم ويخرجون من أكواخهم مع أول أشعة الشمس، وتتعالى أصوات الماشية، ويبدأ رئيس القبيلة فى تقسيم المهام اليومية: فتقوم النساء والأطفال بحلب الماشية قبل إطلاقها لتتناول طعامها من الأعشاب بأعلى ضفاف النهر.

ويقوم الرئيس بالإشراف المباشر على حلب اللبن، وتقدم كل امرأة لرئيس المستوطنة أو القرية ما قامت بحلبه اليوم: ويشرب الرئيس بعض اللبن من أحد الآنية، فى حين يضع أصبعه فقط فى الأوانى الأخرى... ويعنى هذا الفعل أن الرئيس هو حامى المستوطنة وراعيها.

وبينما تقوم النساء بالحلب يجتمع الرجال لمناقشة الأحداث التى تحتاج إلى اتخاذ قرارات بشأنها، مثل زيارة غريب لقريتهم، أو أخبار مصادر المياه حولهم فى الآبار أو الأنهار الصغيرة.

وبعد ذلك يستمر يوم العمل الذى يشارك فيه الجميع، فبعض النساء يطحنَّ الذرة، والبعض يمزجن الطحين بالماء ويعجنه، والفتيات الصغيرات يجمعن الحطب للوقود. وتعد كل امرأة طعامها أمام كوخها استعدادًا لقدوم الزوج، الذى يكون أول من يتناول طعامه، ولا يأكلون حتى ينتهى هو من طعامه الذى أعدته... وبعد الغداء تجتمع النسوة على ضفاف النهر لدبغ الجلود والسمر معًا.

ومن عاداتهم المألوفة لديهم أنه عندما توشك امرأة على الولادة فإنها تغادر كوخها إلى ضفاف النهر، حيث تلد ثم تعود إلى كوخ خاص منفصل، حيث لا يسمح لوالد الضيف الجديد بأن يراه إلا بعد أسبوع من ولادته.

وخلال هذه الفترة يقوم رئيس المستوطنة بطقوس خاصة يقدم خلالها الوليد إلى أرواح الأجداد قبل أن يراه والده ويلمسه. ويكون الرئيس مسئولاً عن رعاية وحماية القادم الصغير.

ومن عاداتهم أيضاً كثرة الأفراح التى تجمع بين زوجين من قبيلة «الهيمبا» وأن يكون الزوج من «نامبيا»، والزوجة من «أنجولا» أو العكس. . . . وكل ما يحدث فى مثل هذه الأحوال أن ينتقل الزوج إلى الضفة الأخرى من النهر ليلتحق بقرية زوجته وأهلها، مصطحباً معه ما يملكه من ماشية.

وفى قبيلة «الهيمبا» تنتشر قصص الحب التى لا تعترف بالحدود السياسية، ولا تقف تجاه الأنهار. . . وغالبا ما تنتهى بدخول الحبيبين «كوخ» الزوجية ليعيشا ويكونا أسرة برعاية رئيس المستوطنة بعد أن تبارك أرواح الأجداد الحب الجديد والزواج الجديد[1].

* * *

(١) مجلة الشرق الأوسط فى عددها الصادر فى ١٨/٩/١٩٩١ (بتصرف).

obeikandl.com

• قبيلة الليبابور[1]:

* من العادات والتقاليد التى تتميز بها قبيلة «الليبابور» بأثيوبيا ما يعرف باسم «قعدة القهوة»، والتى تتميز بمراسيم خاصة، تبدأ بفرد البسطة[2] وبعثرة الحشائش على الأرض التى تم رشها بالماء.

ثم تجتمع الأسرة حول النار التى تحمص عليها حبَّات البن المخلوطة بالحبهان والزنجبيل والبهارات، ويعبق البخور الأجواء.

ويتم هذا الاجتماع الأُسْرى عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع، فيتلو أحد شيوخ الأسرة بعض آيات من الذكر الحكيم، ثم بعض الأدعية... بعدها تدور فناجين القهوة على الحاضرين.

ومن الجدير بالذكر أنه يتم ـ خلال هذا الاجتماع ـ طحن البن وخلطه أمام الضيوف الذين تدعوهم الأسرة... ثم تبدأ إحدى الفتيات فى غلى القهوة المرة، حيث يفضل أهل القبيلة مذاقها الطبيعى، فى حين يقدمون السكر للضيوف لخلطه بالقهوة إذا أرادوا، وذلك فى إناء فخار مزين بالرسوم الزخرفية.

---

(١) «الليبابور» هم فرع من «الأورومو» أكبر قبائل أثيوبيا التى يبلغ تعدادها ثلاثين مليون نسمة، أغلبهم من المسلمين... ويسكن معظمهم منطقة «جما» التى تشتهر بمزارع البن الحبشى ذائع الصيت، ولا سيما أنهم قد توارثوا زراعة البن.

(٢) أى: بساط الأرض.

هذا، وتسمى طرق عمل القهوة بأسماء مبتكريها، فهناك «البكرى».. و«الثنى».. و«البركة»[1].

ومن العادات الاجتماعية أيضًا فى تلك القبيلة أنه عندما ينوى الشاب الاقتران بفتاة فإن أسرته تـتجلب أفخر الخيول وأعظمها، وتقوم بتزيينها بأجراس وشرائط من الحرير الملون... ثم يمتطيها نخبة من رجال القبيلة حاملين رسالة مكتوبة من والد الخطيب لأهل الخطيبة تُسَلَّم عند مدخل الدار، على أن يعودوا بعد أسبوع لمعرفة الرد.

وخلال هذا الأسبوع تتم المشاورات بين رجال أسرة الخطيبة، ويسأل شبابها إن كان بينهم من يرغب فى الزواج منها.

فإذا كانت إجابتهم بالنفى فيعلق الموعد المقترح لزيارة أهل الخطيب على واجهة مدخل الدار ليقرأه موفود الأسرة... ويكون الموعد بمثابة الموافقة على بداية المراسم.

ويـتقبل أهل العروس ركب الفرسان مرة أخرى، وتوزع عليهم أكواب اللبن والتمر وأعواد «الصندل».

ثم يحضر أكبر رجال القبيلة لطلب الفتاة، على أن يكون اسمه «محمدًا» أو «أحمد» تبركاً باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعادة ما يكون المهر عددًا من الأبقار والأغنام، أو الأفدنة المزروعة بمحصولات الموسم، فضلاً عن المال والذهب.

أما فى قبيلة «السيدامو» بأثيوبيا أيضًا ـ فلا بد للشاب الذى ينوى الاقتران بفتاة أن يقدم مزرعة مثمرة لخطيبته، ويتعاون شباب الأسرة فى زراعتها وإعدادها لفترة قد تمتد إلى أكثر من عام.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

وعندما تخضر المزرعة وتثمر يحدد والد الخطيبة موعد الزفاف، ويصطحب ابنته لزيارتها للتعرف على الجهد الذى بذله الخطيب من أجلها. وتجىء الزيارة الثانية بعد إنجاب أول مولود للعروسين، حيث تحمله أمه على ظهرها وتعبر به ممرات المنطقة المزروعة... ويطلق البخور ابتهاجًا بزيارة الطفل لمزرعة أهله.

ومن أهم وأعظم عادات تلك القبيلة... اشتراط حفظ الفتيات لأجزاء من القرآن الكريم قبل الزواج... وتجلس الفتاة فى أمسية زفافها فى صحن الدار تحيط بها الصديقات والقريبات مع والديها، وتبدأ فى كتابة ما حفظته من سور القرآن الكريم. وحين يعلن شيخ القبيلة اجتيازها للاختبار، توزع الحلوى إيذاناً ببدء العرس.

كما يحرص الصبية الصغار على حفظ القرآن الكريم منذ الصغر، ويحتفل بهم الأهل بإهدائهم ملابس جديدة ونقودًا وحلوى كلما أتموا حفظ جزء منه، ويطوفون فى الأحياء حاملين الألواح التى كتبوا فيها آيات القرآن الكريم، ومن خلفهم أطفال آخرون يشجعونهم بالعزف على الطبول[1].

* * *

*** قبائل الجلا:**

عند قبائل «الجلا» بأثيوبيا عادات مرعية فى الزواج، منها أنه إذا أحب شاب فتاة وأحبته وبادلته الرضا بالزواج، أخبر أباه بذلك، فإذا رآها كُفْئًا له، ورأى أن أهلها أكفاء أهله، ووافقه على الزواج منها ـ كان حقا عليه أن يوزع الهدايا بين أهله المقربين... وأكثر ما تكون هذه الهدايا «ماعزًا» لينال رضاهم بهذا الزواج.

(١) مجلة سيدتى الصادرة فى ١١/ ٥/ ١٩٩٢ (بتصرف).

وقد يحدث هذا كله و عروس طفلة... فإذا ما بلغت الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وحاز هذا الزواج قبولها، يحدد أهلها يوم الزفاف. ويذهب أبوها إلى منازل أقاربه وأصدقائه الذين أبلغوه رغبتهم فى تقديم هدايا لابنته، وأغلبها تكون «ماعزًا».. وترسل الهدايا كلها مع العروس إلى بيت زوجها.

ويعد إنجاب البنات لدى هذه القبائل غير مرغوب فيه، ولا سيما عند فقرائهم الذين كثيرًا ما ينبذون بناتهم بالعراء ليلتقطهن بعض المارة، أو يلقونهن فى الأنهار، أو يحملونهن إلى الغابات لتأكلهن الضباع[1].

* * *

* **قبائل البشارية[2]:**

تتميز قبائل البشارية بعادات وتقاليد غريبة، ولا سيما فى الزواج، فعندما يتم الاتفاق بين أهل العروس وأهل العريس يجتمع المدعوون حول والدى العروسين والمتصافحين باليمين، يتلقيان خبطات يد شيخهم الذى يباشر إحدى مهامه كمأذون القبيلة.

وعلى مدى أسبوع كامل يتقبلون التهانى والشربات من أهالى القبيلة، وفى أثناء ذلك ينثر العريس رذاذ زجاجات العطر على الجميع.

(١) أثيوبيا: حسن محمد جوهر، من «سلسلة شعوب العالم»، دار المعارف.

(٢) هى أحد أفرع قبيلة «البجا» المنتشرة بامتداد الصحراء الشرقية من شمال مصر وحتى شمال أثيوبيا، وهم رعاة رُحَّل بأغنامهم وجمالهم، وليس لهم مورد آخر إلا جمع الأعشاب الطبية من الجبال، وما تقدمه الحكومة المصرية لهم من إعانات ورعاية اجتماعية وصحية منذ عام ١٨٩٩م حتى الآن.

... وحياة «البشارية» حتى الآن أقرب لمعيشة القرون الوسطى، فهم لا يعرفون الماء إلا للشرب، ولا يأكلون إلا لحوم الإبل... وهم يعانون من سوء تغذية دائم، ومن ندرة تناول الخضراوات، فأقرب مسافة بينهم وبين وادى النيل هى ٤٠٠ كيلو متر من أسوان، ونحو ثلاثة آلاف كيلو متر تبعدهم عن القاهرة... وتتحدث قبائل «البشارية» لغة «البدويت» وهى لغة كوشية طُعمت بألفاظ عربية.

هذا، ويأتى المدعوون بهداياهم من الأغنام والماعز، والمواد التموينية مساهمة فى الولائم المستمرة للجميع... وفى الوقت ذاته يأكلون من قطع اللحم المسلوق والأرز المطبوخ فى أوانٍ ضخمة، والتى توضع فى «صَوَانى» وأطباق كبيرة تحت شجرة يتحلقون جميعًا حولها.. هم يشربون «الجبنة»[1] فى «فناجين» صغيرة بأعداد فردية طوال وجودهم فى الأفراح.

وفى مساء اليوم السابع، تأتى إليه العروس، ويبيت معها فى «البرش»[2]... وعند الفجر تعود العروس لأهلها حيث لا يلتقى بها نهاراً خلال أربعين يومًا من تاريخ زفافها إليه، وذلك حتى تأنس إليه، وتطيب إقامتها معه، ولا سيما أن العروس تكون صغيرة السن فى الغالب.

ومن الجدير بالإشارة أن العروس غالبًا ما تكون ابنة عمه، أو من بنات القبيلة التى اختارها له والده وكبار العائلة، وهو لا يستطيع الاعتراض على اختيارهم، أو حتى محاولة رؤيتها قبل الزواج.

وتعدد الزوجات مسموح به، وفى هذه الحالة يستطيع العريس رؤية العروس فى الزيجات الأخرى ورفضها إن لم تعجبه، ولكن لا بد من استئذان الزوجة الأولى فى ذلك، والتى ستصبح عندئذ رئيسة البيت ومدبرة شئونه، وكلهن يخضعن لأوامرها.

وتعدد الزوجات بين رجال «البشارية» أمر طبيعى، ولا سيما أنهم لا يقربون زوجاتهم جنسيا أثناء الحمل والرضاعة، فضلاً عن تعدد أماكن إقامتهم، تبعًا لتعدد مراعيهم، حيث مناطق الأمطار ومواسمها، فيجعلون فى كل منطقة زوجة كمقر ارتكاز يعود إليه الزوج فى رحلاته المتعددة على مدار العام.

---

(١) نوع من القهوة مخلوط بالبهارات تُصنع في إناء فخارى خاص.

(٢) هو عبارة عن خيمة صغيرة من الخيش.

ولا تختلف ملابس العريس عن ملابسه العادية، فهى جلبات طويل أبيض عليه صديرى أسود من الصوف، يبطن فى الشتاء بفرو خروف، وأسفل الجلباب سروال أبيض، والحذاء جلدى بسيط.

والعروس أيضًا ملابسها جديدة ذات ألوان فاقعة، وتتميز بالبساطة... ومهر عروس «البشارية» عبارة عن ناقة وجمل يقدمها أهل العروسين هدية للأسرة الجديدة، ويرعونهما كأساس لارتباطهما الدائم، فإذا ما دب الخلاف بينهما، فعلى الرافض لاستمرار الحياة الزوجية أن يتنازل عن الجمل إلى الطرف الآخر.

وعريس «البشارية» لا يرى حماته ولا يتعامل معها، إلاَّ بعد أن ينجب من عروسه، فيقدم هدية خاصة لحماته، حيث تضع الزوجة طفلها عند أهلها.. ويسميه الأب بعد «السبوع»، ويتم ختانه بعد أربعين يومًا فى احتفال توضع فيه أطباق الخبز والسكر واللبن، وتتلقى الأم نقوطَ الأهل والأحباب.

ومن عاداتهم الاجتماعية ـ فى حالات الموت ـ أن يدفن «البشارية» موتاهم بعيدًا عن مهبط السيول، ويوضع عليه اللبن والسمن والماء وبعض مقتنياته، ويذبح خروف للمعزين... ويبدلون خيش خيمهم بخيش جديد؛ لأن المساكن الثابتة يستحيل تغييرها عند وفاة أحد، مما يضعهم على عتبات عادات وتقاليد جديدة لا يتواءم معها الكثيرون بسرعة.

وقد فرضت قسوة الحياة البشارية رحمة فى أحكامهم، للرفق بالإنسان الضعيف أساسًا أمام ظروف الحياة... ويحسم فى أى قضايا ومنازعات تنشب بينهم شيخ القبيلة الذى يعد «مندرة» خاصة لاستقبال الأهالى ليفض نزاعاتهم.

وتدور معظم الأحكام حول الغرامات... والغرامات إما مالية أو عينية، بالجمال، وخصوصا فى قضايا القتل.... وقد تصر بعض القبائل على أن

يأتيهم القاتل مربوطًا يستسمحهم فى شكل أقرب إلى تقديم الأكفان فى قضايا الثأر فى صعيد مصر.

كما أنهم قد يتغاضون عن السابقة الأولى، لكنهم ينفذون الغرامة عند تكرار الفعل. هذا، وتتكاتف القبيلة فى دفع هذه الغرامة، إذا ما عجز المتهم عن جمعها... وتعتبر أقصى عقوبة تأتى لمن يسىء الأدب فى حق نساء القبيلة، فيطرد من القبيلة ويمنع من العودة إليها مرة أخرى.

وبحكم البيئة الصحراوية التى تزخر بالثعابين، والعقارب، والنسور، والعقبان، وغيرها من الطيور والحيوانات الخطيرة، تتعامل البشارية معها بحكمة ومهارة، فالثعبان مثلاً يعطى فرصة كافية ليمضى بعيدًا، قبل أن يضطر البشارى لمواجهته بسيفه أو عصاه، ولا سيما أن الثعبان لا يهاجم إلا من يؤذيه، وعند جوعه، لكنه إذا أصر فلا بديل عن قتله ودفنه بعيدًا عن مهبط السيول مع روث الجمال، ليضلل به أنثاه حتى لا تأخذ بثأره ممن قتله.

وهكذا يتعاملون مع الكائنات الصحراوية الخطيرة، كلٌّ بأسلوب معين يتفق مع طبيعته[1].

هذا، ويحافظ البشارى على طقوس أجداده القدامى، ممنطقاً بخنجره فى حزامه الجلدى وسيفه البتار، ودرعه التى يصدّ بها أعداء وهميين ضاعوا مع الزمن وتطوره، فأبقاهم فى رقصاته التى يؤديها فى أفراحه وسمره بين البيوت المقامة من الخيش[2].

---

(١) يقال إن عندهم عشبًا خاصًا بعلاج لدغ ثعبان «الطرشة» أخطر أنواع الثعابين فى العالم، وهو ينمو فى أعلى جبل «علبة» على ارتفاع كيلو متر فوق سطح البحر.

(٢) مجلة الشرق الأوسط فى عددها الصادر فى ٢٤/ ٢/ ١٩٩٣ (بتصرف).

* **قبيلة التوارج:**.

فى قبيلة «التوارج» التى تعيش بالقرب من حدود «النيجر» و«مالى» تتمتع المرأة بقدر كبير من الاحترام والتقدير، وتتساوى مع الرجل فى كل شىء. . . وتدير المخيم خلال فترة غياب الرجل التى تمتد لفترات طويلة. . . وعليها تقع مسئولية تربية وتعليم الأبناء.

وبالرغم من قسوة ظروف الحياة الصحراوية فإن المرأة لا تهمل الاهتمام بجمالها وهندامها واستغلال مواهبها فى الأعمال اليدوية النسوية.

ومن الجدير بالذكر أن نظام الأمومة السائد يفرض نوعًا من الترابط بين أفراد القبيلة الواحدة، بمعنى أن الأم هى التى تكون والية على أولادها.

ومن نظم القبيلة أيضًا عدم السماح بتعدد الزوجات، وضرورة مراعاة مشاعر الزوجة. .

وإذا قام أحد الأزواج بضرب زوجته مثلاً، فإن أفراد القبيلة يطالبونه بالطلاق، ويطردونه من الخمية المخصصة له.

وفى أىٍّ من حالات الطلاق، فإن من حق الزوجة الاحتفاظ بأطفالها والخيمة والأغنام التى فى حوزة مطلقها.

وإذا عاد الزوج بعد فترة غياب طويلة، فإنه يجب عليه أن يتجنب الدخول إلى خميته على حين غفلة، ولكنه يستريح فى مخيم قريب، ويرسل أحد الأصدقاء؛ ليخبر زوجته بقدومه، وحتى يأخذ الوقت الكافى ليصلح من هندامه قبل مقابلة زوجته!

والرجل ليس له الحق فى إظهار غيرته وإحساسه بالضيق أمام زوجته، فالانفعالات يجب أن تُقرأ فى نظراته فحسب.

ومن العادات الغريبة فى هذه القبيلة أن المرأة يمكن أن يكون لها معجبون يقولون فيها الشعر، ويتغنون بجمالها وحُسنها على الملأ، وما على الزوج إلا استحسان ذلك..

وحتى وقت قريب كان المتحاربون يخرجون للقتال وهم يصيحون بأسماء محبوباتهم[1].

* * *

* **جماعات اليوربا:**

من عادات جماعات «اليوربا» التى تسكن فى جنوب غربى نيجيريا المبالغة فى التحية والتكريم والاحترام، فهى عندهم سمة التواضع... هذا، وتنقسم هذه التحية إلى نوعين.

ـ التعبير بعبارات طيبة وكلمات كلها تواضع وتقدير للكبار.

ـ أو خلع النعال والجثو على الركب والانبطاح والسجود، وخاصة أمام الأمراء والزعماء القبليين[2] وذلك حسب العرف والتقاليد التى توجب على صغيرهم احترام كبيرهم، وعدم ندائه باسمه، وألاّ يقدم نفسه عليه فى الكلام، وفى المجالس، وفى الأكل، وفى المشى، وفى جميع الأحوال.

ومن الجدير بالذكر أن للملوك والأمراء عند «اليوربا» درجات وامتيازات.. ويعتبر أصحاب التيجان هم أصحاب الدرجة الأولى الممتازون، ثم يليهم الآخرون.

(١) مجلة نصف الدنيا الصادرة فى ١٩/٧/١٩٩٢ (بتصرف).

(٢) تذكر أحد الاستطلاعات التى قام بها سليمان مظهر المحرر بمجلة العربى: «أنه قد رأى مثل ذلك فى «لاجوس» العاصة عندما التقى بوزير الإعلام الذى يتمتع بقيمة عشائرية فى اليوربا يقول: فقد وجدنا الذين يدخلون لمقابلته ـ بمن فى ذلك النساء ـ يجثون على ركبهم، ويتقدمون إليه بمطالبهم بدون أن ينهضوا للوقوف إلا بعد أن يسمح لهم بذلك».

ولقد كان ملوك «يوربا» وأمراؤهم فى الماضى أصحاب الأمر والسلطة ورجال التشريع والتنفيذ... أما اليوم فقد تغير كل شىء، وأصبح الملوك والأمراء ألعوبة بيد السياسيين المثقفين من أبناء البلاد منذ أوائل خمسينيات القرن العشرين.. ولم يبق لهم شىء من صلاحيات دستورية تميزهم عن الناس العاديين من الشعب إلا أبهة الملك وأزياؤه، ومنها تيجانهم المنظومة من الخرز والياقوت، وبعض الكراسى الخشبية التى ذوبت عليها الفضة، ثم الرسم الصورى للحيوانات على جدران قصورهم، ثم الدفوف والبنادير والطبول التى تطبل والأبواق التى ينفخ فيها أيام الأعياد الوطنية وغيرها، والتى منعت الحكومة استعمالها لغيرهم امتيازًا لهم[1].

ويلاحظ أن التقاليد القبلية المختلطة بالوثنية القديمة لا تزال حية، حتى بعد أن تحولت الأغلبية النيجيرية إلى الديانات السماوية[2].. ومن أمثلة ذلك استلقاء البعض على وجههم تحت الشمس، وفوق الرمال الساخنة على شاطئ البحر وهم يتعبدون، وقد فتحوا أمامهم الكتاب المقدس، ونثروا عشرات من الشموع وأوراق الأدعيات، بينها بعض قرابين الفاكهة والخضراوات.

وآخرون يجثون على ركبهم فوق الرمال، وقد رفعوا أيديهم نحو السماء، وأمامهم القرابين والأضحيات، والصور والتماثيل والصليب على صفحات الإنجيل، يمارسون الطقوس المسيحية مختلطة بالطقوس الوثنية التى كان يمارسها الآباء والأجداد.

*** جماعات «سكوتو»:**

وفى ولاية «سكوتو» أهم مناطق نيجيريا الشمالية[3] لا يزال الأهالى

(١) مجلة العربى فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٩٢ (بتصرف).

(٢) حيث يدين بالإسلام نحو ٦٥٪ من السكان، وبالمسيحية نحو ٣٠٪ فى حين أن الوثنيين وأصحاب الديانات غير السماوية لا يتجاوزون الآن ٥٪.

(٣) تعتبر «سكوتو» مقر السلطان الإمام والزعيم الروحى للمسلمين فى كل أنحاء نيجيريا، كما تعتبر المركز الرئيسى للأنشطة الإسلامية فى البلاد.

يمارسون العادات والتقاليد التى ظلت تتبع مئات السنين، وإن كانت أشياء كثيرة قد تغيرت كانت سائدة فى بلاد «الهوسا» مثل وضع التراب على الرءوس عند التحية، وضرب الطبول والمزامير، وشرب الخمر، وذلك بعد اعتناق كثير من سكانها الإسلام.

ومن تلك العادات أيضًا لاختبار قدرة الشاب وتحمله أن تضعه وسط حلقة حاملاً صينية فوقها بعض الأشياء، وهو يستعد لتلقى ضربات السوط من أى فرد من أفراد العائلة الذين يشكلون الحلقة، فإذا سقطت الصينية أو الأشياء التى فوقها أصبح موضع السخرية من الجميع.

ومن أهم ما يميزها من عادات تلك الاحتفالات والأعياد السنوية التى تقام على فترات، بهدف إظهار المعتقدات الحضارية والدينية للمجتمعات القبلية... ومن هذه الأعياد ما يسمونه «الوهولا»... و«الواسان باورا».. و«صلاة مهرجان الصيد» والذى يعتبر من أهم معالم الجذب السياحى فى هذه الولاية[1].

وفى مجتمع «سكوتو» بنيجيريا للزواج عادات وتقاليد، منها ما يتعلق بالخطبة، وأخرى بالزفاف...

ويبدأ الاحتفال فى منزل والد الفتاة، ويكون على نفقة الخطيب، الذى يرسل كميات من الثمار والحلوى لتوزيعها على الأصدقاء والجيران والأقارب.

وفى يوم الخطبة يتوافد المدعوون، ثم يبدأ الحفل حيث توزع الهدايا والحلوى، وقبل الزفاف يقوم العريس بإهداء عروسه عددًا من الثياب، وكمية من الصابون والروائح العطرية.

---

(١) المرجع السابق. (بتصرف)

وفى يوم الزفاف يُقام حفل كبير خارج البيت، وتقدم «النقطة» للعريس بين إنشاد المداحين.

ويختلف المهر من قبيلة ومن إمارة إلى أخرى فى مجتمع «سكوتو»، ومن أمثلة ذلك أن يرسل العريس هدية مالية فى بداية الأمر إلى والد العروس يحتفظ بها لحين مناقشة موضوع الزواج مع أفراد أسرته، وإذا تمت الموافقة تدور مناقشات حول قيمة الصداق، والذى يُدفع جزء منه مقدمًا، فى حين يبدأ العريس فى إرسال هدايا صغيرة لعروسه، وبعد ذلك يُحَدَّد مبلغ آخر لعقد القران، ومبلغ آخر للشيخ الذى يعقده، بعدها تُرْسَلُ العروس إلى منزل زوجها.

ويعتبر زواج الأقارب هو المفضل، وإن كان هناك زواج الحب والصداقة، وفى هذا النوع من الزواج يجهز الوالد ابنته، ويجمع أصدقاءه، ويحضر الشيخ، ويذكر الأب أنه قرر إعطاء ابنته صدقة لفلان، وغالبًا ما يكون العريس إمَّا شيخًا أو رجلاً يتيماً، ويقدم الوالد هدية لابنته بمثابة صداق لها، وبعد أن يدعو الوالد الشهود ويعلن اسم الرجل الذى سيعطيه ابنته كزواج صدقة، وقيمة مبلغ الصداق يصطحبهما إلى بيت العريس.

وعند الاحتفال يطلق على هذا العريس اسم «محمد» مهما كان اسمه الحقيقى، وتعتبر الفتاة وكأنها أعطيت صدقة زواج للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن العادات المستحبة السائدة استحياء الزوج من والد زوجته ووالدتها، واحترامهما إلى حد كبير... كما تستحى الزوجة أيضًا من والد زوجها ووالدته.

ومن العادات المرعية أن الزوجة لا يمكن أن تدعو زوجها باسمه أو اسم والده أو والدته، بل تخاطبه بقول «مالم» أى معلم.

والطلاق شائع فى مجتمع «سكوتو»، وتطلبه الزوجة كما يطلبه الزوج على حد سواء، ومن أهم أسبابه إهمال الزوجة للأعمال المنزلية، أو العقم، أو ضعف صحة الزوج، وعدم قدرته على إشباع رغباتها أو عدم قدرته على إعالتها.

* **قبائل النارون:**

عند قبائل «النارون» فى جنوب غربى إفريقيا تقاليد غريبة للزواج، منها أن يذهب شابان إلى قبيلة مجاورة ويجلسان فى جوار النار التى يوقدونها بدون أن يذكرا شيئًا عن سبب حضورهما، وعندما تعود الفتيات تحملن جرار الماء وقد ملأنها من النبع القريب، يثب الشابان نحو الفتاة التى ينتظرانها ويحملانها ويعدوان مسرعين إلى قريتهما ليتزوجها أحدهما الذى جاء للقيام بهذا، ويصحبه أحد أصدقائه الذى رضى بمعاونته فى عملية الاختطاف.

هذا، وتبدو العملية فى ظاهرها العام عملية اختطاف فعلاً، إلا أنها تعنى فى مفهوم تلك القبائل طقسًا من طقوس الزواج، حيث إن الشاب يكون قد اتفق مسبقًا مع والد الفتاة أو ولى أمرها على ما سيقدم عليه، ويكون قد دفع له صداقها.. أى حصل على إذن أبيها باختطافها.

ومع أن الفتاة لا تعرف بهذا الاتفاق، ومع أنها تستغيث عندما ينقض عليها من يريد الزواج بها، فإنها تُسَرُّ فى داخل نفسها من أنها تُخْطَف دون صويحباتها اللاتى كانت تسير برفقتهن عائدات من النبع[1].

وكذلك الحال عند قبيلة «البالويا» التى تطلق على الزواج «سرقة العروس»، حيث يذهب الشاب ـ بعد أن يكون قد تفاوض مع أسرة الفتاة التى يريد الزواج منها، وتكون الفتاة قد رضيت به زوجًا ـ فى صحبة نفر من

(١) الثقافات الإفريقية: محمد عبد الفتاح إبراهيم (بتصرف).

أصحابه إلى أسرة الفتاة.. وقد يغطى الشاب وجهه حتى لا تبدو سماته ولا يعرفه أحد، ويسير الجميع وسط الحشائش فى هدوء حتى لا يحس باقترابهم أحد، فإذا وصلوا إلى مسافة قصيرة من خمية أسرة الفتاة أطلقوا صرخات الحرب واندفعوا محتشدين نحو الخمية... وتخرج الفتاة عند سماعها صرخات الحرب وتقف عند باب الخيمة صامتة، فإذا ما وصلوا إلى قيد خطوات من الخيمة فرت إلى داخلها وكأنها قد فزعت لمرآهم.

وبعد لحظات تخرج أمها وتبدى غضبها لتجمع الشبان أمام خيمتها، ولكنها لا تلبث أن تخفف من حدتها عندما يضعون بين يديها الهدية التى جاءوا بها. بعدها يمسك الشبان بالفتاة من كتفيها، وتحملها على كتفيها امرأة من قبيلتهم تكون قد لحقت بهم... ويسرع الجميع بالفتاة إلى قريتهم يتبعهم أفراد من أسرة الفتاة وقد حملوا بعض السلال التى فيها أمتعتها، كما يحملون معهم معدات إقامة حفل الزواج.

ويسبق الزوج هذا الركب، ثم يختفى داخل خيمته، فإذا ما وصل الركب إلى الخيمة خرجت أمه مرحبة بالزوجة الصغيرة، ولكنها ترحب بها بأسلوب فريد من نوعه، إذ تمطرها وابلاً من السباب، لكونها ستحتل مكان السيادة فى الأسرة، وأخيراً يسترضونها بأن يقدموا لها هدية، عندئذ تسمح للعروس وأهلها بدخول الخيمة للبحث عن الزوج الذى يقدم لها هو بدوره هدية مثلهم... ثم يبدءون حفل الزواج فى الحال.

*** قبائل المازاى:**

وعند قبائل «المازاى» فى شرق إفريقيا تبدأ الخطبة من تاريخ مبكر، والفتاة لا تزال صغيرة دون الطوق، فيبعث لها الشاب بهدية من العسل إظهاراً لرغبته فى الزواج منها.

فإذا قبلت هديته فإن ذلك يعنى أن طلبه قد قُبِلَ. . . وتمر سنوات ثم يبعث من جديد بهدية من العسل والتبغ، فإذا قبل الأب ما أرسل إليه من العسل والتبغ كان معنى هذا أنه رضى بالشاب، وأنه قد وثق بجدية الطلب، وعندئذ تجرى عملية الختان للعروس.

ويجب انتظار شهر ليلتئم الجرح، وبعدئذ يبعث الخطيب إلى حظيرة أسرة الفتاة بالماشية التى يكون قد اتفق هو والأب عليها كأجر للعروس.

هذا، ويجب أن يكون الأجر من الثيران ومن الأبقار، والعادة أن يكون الأجر ثورين وثلاث بقرات، ويجب أن يذبح أحد الثورين حال وصول الماشية إلى الحظيرة ليكون الزواج سعيدًا مثمرًا.

وبعد أيام يذهب الرجل لإحضار عروسه، ويضحى العريس بهذه المناسبة بعدد من الخراف، وتكون العروس قد أعدت ثيابها، وتسير عند انتقالها إلى منزل زوجها متباطئة؛ لأن العجلة تؤخذ على مأخذ لا يليق بأسرتها[1].

وأهم ما يسترعى الانتباه من هذه العادات عند تلك القبائل وغيرها أنهم قد عرفوا عادة اختيار موعد عقد الزواج على أساس ما يتوافر لديهم من تطير وطيرة، حيث يقدرون أيامًا للخير يجب انتهازها، وأيامًا للشر يجب تجنبها، فقدروا هذه الأيام فى ضوء المعتقدات الخاصة «بمنازل القمر»[2].

وقد قضت التقاليد بتفضيل الأيام التالية لعقد الزواج:

الثالث من شهر فبراير إلى الثالث عشر من شهر يونيو.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) أوفى الدراسات فى هذا اللون من التقدير اللأيام هى الدرسات التى أجراها «كروفوت» بين قبائل «الفلاتا و «الفور»، وتعرف على أنهم كانوا يقسمون السنة إلى ٢٨ منزلاً، كل منها ١٣ يومًا، وكانت لهم آراؤهم فى هذه المنازل القمرية وما ينسبونه لها من خير أو شر.

التاسع من شهر أبريل إلى السادس والعشرين من شهر يونيو.

الثامن عشر من شهر مايو إلى الثلاثين من شهر نوفمبر.

وفى الوقت ذاته قضت هذه التقاليد بضرورة تجنب عقد الزواج فى الأيام التالية[1]:

فى الثانى والعشرين من شهر يوليو، إلى الرابع من شهر أغسطس.

وفى الثامن عشر من شهر أغسطس إلى الثالث عشر من شهر سبتمبر.

واليوم الثانى عشر من شهر ديسمبر.

كما قضت التقاليد بتجنب يوم الثالث والعشرين من أبريل حتى لا تموت الزوجة، ويوم الخامس من مايو، والحادى والعشرين من يناير حتى لا يموت الزوج فى نفس العام... وتجنب اليوم الرابع من نوفمبر، إذ تتعرض الزوجة لارتكاب الخطايا.

وعند هذه القبائل أيضًا نظام يحرصون على الالتزام به، مؤداه أن يظل الرجال حتى سن الثلاثين فى طبقة المحاربين، ومن ثم فإنهم لا يتزوجون قبل انتقالهم من هذه الطبقة، ولو حدث اتصال جنسى بين رجل وفتاة فإنه يتزوجها بعد انتهاء فترة الجندية.

* * *

(١) وقد عبروا عن ذلك فى أدبهم، فهناك قصيدة تبدأ بسطور جاء فيها:
«أنت يا من تريد الزواج لا تتعجل...»
«ولا تتزوج إلا عندما يكون القمر فى منزلة من منازل السعد...»
«ذلك لأن بعض منازل القمر تجىء بالسعادة وبعضها تجىء بالشقاء».

* **الفضيلة الجنسية لدى بعض القبائل:**

عند قبائل «الأشانطى» فى غرب إفريقيا ينظر إلى جريمة الخيانة الزوجية نظرة استهجان وازدراء، ولا سيما إذا حدثت مع زوجة حامل، لاعتقادهم بأن هذا الاتصال غير الشرعى يضير بالجنين.

وكذلك إذا حدثت الخطيئة عندما يكون الزوج فى رحلة صيد، حيث هناك اعتقاد سائد أن ذلك يسبب سوء حظ الزوج فى الصيد إن لم يؤد إلى مصرعه.

والرجل هو الذى يفحص عروسه عند الزواج بها، فإذا لم يجدها عذراء شق قطعاً فى النصف الأسفل من ثوبها، وأمرها بأن تحمل الثوب إلى أمها.

وهنا تقضى التقاليد بأن يقوم الأب أو ولى أمرها بتعويض الزوج عن «البضاعة التالفة»، كما يرسل الأب هدية إلى الزوج تعتبر رداً لهدايا الزوج التى أرسلها للأب عندما كان يطلب الزواج من ابنته. . . . على أن الزوج إذا سامح زوجته وغفر لها ذنبها فإنه يضع على ظهرها بعض أوراق الشجر دليلاً على تسامحه.

والجدير بالإشارة أنه برغم توافر الاحتفالات الراقصة التى يشترك فيها الشباب والفتيات فإن الطقوس والتقاليد تفرض على الفتيات أن يحافظن على عفتهن، ولا سيما أن الفتاة تُفْحَصُ بدقة ممن يتزوج منها، وتبعًا لمسئولية أبيها فإنه يبقيها دائماً تحت رقابة قاسية، ويمنعها حتى من الاختلاء بالشاب الذى اتفق معه على الزواج منها، وذلك طوال مدة الخطبة، والظريف أن الفتاة التى ارتكبت خطيئة تعترف لزوجها بجريمتها، وتضحى بشاة لإزالة كل آثار الجريمة، وغالبا ما يسامحها زوجها.

وعند قبائل «الليو» تعتبر أسوأ الجرائم الجنسية ما يحدث بين الأقارب، بما يوجب أداء بعض الطقوس إلى جانب الغرامة والتعويض.

والرجل الذى يتصل بامرأة حامل ثم تجهض فإنه يتهم بجناية القتل، فضلاً عن جناية الخيانة الزوجية، من ثم يدفع تعويضًا عن الخيانة، وَدِية عن القتل، ويكون السداد من الماشية.

هذا، وهناك التزام بمبدأ التعويض حتى ولو لم يحدث الحمل، ويدفع التعويض لوالد الفتاة، الذى يضطر بدوره إلى تعويض الزوج بإعادة ما سبق أن دفعه له أجرًا لابنته كزوجة، فضلاً عن ذلك يتحمل الأب الطفل ثمرة الخطيئة[1].

* **تقاليد الحصاد عند بعض القبائل:**

من التقاليد المتبعة عند قبائل «الأشانطى» فى غرب إفريقيا الاحتفال بعيد حصاد «إليام» Yam[2] فى شهر سبتمبر، حيث يقيمون الاحتفالات الكبيرة، برغم محاولات البعثات التبشيرية للقضاء على مثل هذه العادات التى يصفونها بالوثنية.

وقد جرت العادة ألاَّ يأكل الناس ثمار المحصول الجديد حتى تنتهى الاحتفالات التى تستمر لمدة عشرة أيام، وحتى يكون زعيم «الأشانطى» قد تذوقه.

ويعتبر الدور الذى يلعبه هذا الزعيم فى هذه الاحتفالات دورًا مهما، وذلك طبقًا للتقاليد التى تذهب بأن له السيادة على المحصول، ومن ثم فهو وحده الذى يأكل من المحصول الجديد فى اليوم الخامس من بداية الاحتفالات، ثم يأكل منه مرة ثانية فى اليوم العاشر، وهو آخر أيام الاحتفالات، بعدها يرفع الحظر والتحريم، ويبدأ الناس فى الأكل من المحصول الجديد.

(١) الثقافات الإفريقية: محمد عبد الفتاح إبراهيم (بتصرف).
(٢) نوع من ثمار البطاطا.

هذا، ويذهب الزعيم وحده فى أحد أيام الاحتفالات إلى مكان مقدس لديهم عند مجرى ماء ليغتسل؛ ليحصل على قوة بدنية وتطهير نفسىٍّ. ثم يمضى أتباع الزعيم فى ملء جرار الماء من هذا المجرى الذى اغتسل فيه زعيمهم، ويغمس فيه رجال الدين أغصان الأشجار ليلقوا برذاذه على الرجال والنساء لضمان إخصاب الحقول(١).

وعند قبائل «الجا» بغانا يذهب أفراد القبائل إلى قبر أحد الأسلاف لزيارته وقد حملوا عيدان «الذرة العويجة» ويدورون حول القبر وهم ينشدون بعض الأناشيد، ثم يسيرون فى ركب طويل إلى البحر ليلقوا ببعض الأطعمة التى أعدوها خاصة للحفل كضحية للآلهة.

وقد جرت العادة فى أيام الحصاد أن يزور الزعماء المحليون الزعيم المركزى الذى يخضعون لسلطانه لمشاركته فى الاحتفالات، فضلاً عن تجديد الولاء له... ومن مظاهر تلك الاحتفالات أن يضع أفراد القبائل مادة من صبغ أحمر على أبواب مساكنهم لإبعاد الشرور عنهم.

وعند قبائل «الكيتارا» فى وسط إفريقيا... يذهبون إلى وسيطة آلهة الحصاد «كايكارا»، وهى امرأة عجوز، ليقدموا لها بعض المحصول الجديد قبل حصاده، فتلقى ببعضه فى هيكل الآلهة، وتقدم الباقى إلى الذين يتعبدون عند باب الهيكل، فيلتهمونه إنهاءً لصومهم الذى يمارسونه فى صحبة الآلهة... وبهذا تكون «كايكارا» آلهة الحصاد قد أذنت ببدء الحصاد.

هذا، وتشترك النساء والرجال فى جمع المحصول.

ويقوم رجل الطب الذى يعرف بـ «الشامان» بالطقوس الدينية مقدمًا ضحية شاة بيضاء مع بعض الدجاج.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

وبعد جمع المحصول تبدأ احتفالات العيد، ويشغل الناس نهارهم بالرقص، ويشترك معهم من يجيئون من مسافات بعيدة للاحتفال بالعيد.

وفى أثناء هذه الاحتفالات يتخير الشباب فتياتهم أو العكس، ولكن لا يتفق الجميع على المهور إلا بعد أن تقوم الحياة الزوجية فعلاً. والطريف أنه فى موسم الحصاد تتهادن كل القبائل والعشائر ويتزاور الناس احتفالاً بالعيد.

وعند قبيلة «البانتو» فى شرق إفريقيا.. تذهب زوجة كل مزراع إلى حقله فتتخير سنبلتين من المحصول الجديد وتثنيهما وتضعهما أسفل حجر فى الحقل، ثم تضع بعض الثمار أعلى الحجر، وبعد ذلك تأخذ جانباً من المحصول إلى حماتها «أم الزوج» وتتقبل الحماة هدية زوجة ابنها وتحملها إلى منزلها.

وهناك اعتقاد سائد أن إغفال هذه العادة يسبب ضعف المحصول فى العام التالى:

كما يتخير أفراد القبيلة امرأة عجوزًا لتتولى جمع أول ثمار المحصول الجديد قبل أن يتم نضجه... ثم تقوم العجوز بطهى ما جمعته من المحصول لتقدمه لزعيم القبيلة لتذوقه، ويشترك معه الجميع فى ذلك... بعدها يمكن البدء فى جمع المحصول؛ لأن تذوق الزعيم له يعتبر إذنًا ببدء الحصاد(١).

*** نظم وعادات غريبة لدي بعض القبائل الإفريقية:**

عند بعض القبائل الإفريقية لابد من شد الشفتين إلى الأمام مدى الحياة، حتى تصبح الشفتان مثل منقار البطة، ويصبح من العسير عليه أن يأكل أو يشرب واقفاً أو جالسًا وإنما مستلقياً... ولذلك كان الزواج ضروريا حين ذاك.

(١) المرجع السابق (بتصرف).

فمن التقاليد المرعية أنه قبل أن يزف العريس إلى عروسه لابد من شد الشفتين والأذنين والأنف، ووضع الشطة فى فمه لتتورم شفتاه ولسانه، حيث يرون أن ذلك ضرورى لليلة سعيدة(١).

وتوجد عادة غريبة لدى قبائل «الكيكويو» بكينيا، حيث يعيش النساء والرجال عرايا إلا من إزار من جلد يتدلى من أمام ومن خلف إلى الركبتين، وهو مفتوح الجوانب، غير منتظم الأطراف. وهم لا يرون عيباً فى ظهور كل أجزاء الجسد عاريًا، فذلك يعد أمرًا طبيعيا لديهم.

ومن عاداتهم الغريبة ختان الفتيات دون الذكور... وقد سرت تلك العادة إلى الكثير من السود على حدود السودان. وهم لا يكتفون فى الختان بقطع الشفرتين فحسب، بل وما حولهما، ثم يُربط الفخذان أيامًا، فيلتحم طرفا الجرح، ويسد المكان كله، عدا موضع «غابة» رفيعة توضع وسط الجرح وتحرك قليلا فى كل يوم... فإذا اندمل الجرح لم يترك إلا ثقباً ضئيلاً هو موضع تلك «الغابة».

وعند الزواج يحاول الزوج فضها، فتحمل الزوجة إليه فى بيته وأهلها من حولها، ويحاول الزوج ذلك، فإن صرخت أخذوها منه إلى بيتهم على أن تُعَاد فى الليلة التالية إليه ليعاود محاولة فضها(٢).

* * *

(١) مما هو جدير بالذكر هنا أنه فى القرن التاسع عشر ظهرت فى أوربا موضة الشفاه الممتلئة، التى تعد دليلاً على الحيوية والإثارة الجنسية، وفى ذلك قد تغنى الشعراء بالشفاه الدافئة الممتلئة!
وفى القرن العشرين مع ظهور نجمة الإغراء الأمريكية «مارلين مونرو» كانت الشفاه الغليظة هى من سمات الجمال والفتنة، وإثارة العيون والشفاه أيضًا!

(٢) نساء العالم كما رأيتهن: محمد ثابت (بتصرف).

وفى قبائل «الماساى» بكينيا لا يوجد اهتمام بالأسنان؛ لأنهم لا يحتاجون إليها، حيث يعيشون على شرب اللبن والدم، فالأبقار تظل فى المرعى وهم يرضعون أثداءها، ثم يجعلونها تنزف دماء، فيشربون الاثنين معًا، ويغطون مكان النزيف بالعجائن النباتية!

* * *

وفى بعض القبائل فى كينيا ونيجيريا والسنغال يمكن زواج امرأة من امرأة أخرى، وذلك بعد اختيار رجلٍ من أقربائها أو أحد أصدقائها أو أصدقاء زوجها للاتصال جنسيا بالفتاة أو المرأة التى تزوجتها بعد أن تدفع من أجلها مهرًا يئول إلى أهل الفتاة، كما يحدث فى خطوبة الرجل للمرأة فى مجتمعنا.

وتكتسب المرأة الزوج على المرأة التى تتزوجها نفس الحقوق التى يكتسبها الرجل من زوجته. فالأولاد الذين يولدون من الزوجة يعتبرون أولاد المرأة الزوج التى دفعت المهر، فضلاً عن ذلك لها الحق فى مقاضاة أى رجل يعاشر الزوجة بدون موافقتها، تمامًا كما يفعل الرجل بالنسبة لمن يزنى بزوجته.

هذا، وتلجأ إلى مثل هذا الزواج الزوجة العاقر، أو المرأة الأرملة، أو الثرية.

* * *

وفى قبائل «النوير» بجنوب السودان يجرى العُرف بأن الرجل إذا مات بدون زواج أو بدون أن يترك وراءه ذرية من الذكور، وجب على أقرب أقاربه أن يتخذ زوجة من أجله، حيث لابد لكل رجل أن يترك وراءه وريثاً يكفل لاسمه البقاء، فالموت بدون ذرية من الذكور لديهم يعنى السقوط فى وهدة النسيان، ويسارع القريب إلى أداء هذا الواجب بمجرد أن يتوافر له من الماشية ما يكفى لدفع مهر من أجل هذه الزوجة.

ويعتقد أفراد تلك القبائل أن التهاون فى أداء الواجب يستتبع غضب روح الميت فى العالم الآخر، وسعيها للانتقام بإلحاق الأذى بذويه!

وفى هذا النوع من الزواج ينظر إلى الرجل «الميت» يوصفه الزوج الشرعى للمرأة، وتقام حفلات الزواج باسمه، ويدفع المهر نيابة عنه. كما يعتبر هو - أيضًا - الأب الشرعى للأولاد الذين قد تلدهم المرأة من علاقتها بهذا الشخص القريب... ولذا فهم يحملون اسمه، ويرثون ثروته.

* * *

وعند الاحتفال بعقد الزواج لدى قبائل «الزولو» من الزنوج فى إفريقيا يقسم العريس أمام عروسه على مشهد من الحاضرين قائلاً:

لينزف كل عرق من عروق جسمى، ولتفترسنى التماسيح، ولتمزقنى الصاعقة إلى شطرين، ولتحل علىَّ كل المصائب والنوائب، إن كنت أخون يومًا زوجتى، ولا أكون وفيا لها!

* * *

وفى قبيلة «آمى» أكبر المجتمعات القبلية التى تقطن سفوح مرتفعات وسط تايوان يحرصون على الروابط الأسرية، بحيث يخصص فى كل كوخ غرفة للابن أو البنت عند الزواج، فإذا زاد العدد بحيث لا يستوعبه الكوخ، فإن الأب يقيم كوخًا آخر على مساحة أخرى غير بعيدة من كوخ الأسرة.

وقبل انتقال العروسين إلى البيت الجديد يُقام احتفال دينى فى كوخ الوالدين، تقدم خلاله فطيرة الأرز قرباناً للآلهة، مع دعوات بألاَّ تنفصل عُرَا الروابط الأُسرية بين البيتين.

وتتميز الأكواخ من الداخل بالزخارف اللونية والرسوم وتماثيل إلهة السماء المنحوتة على الأعمدة الخشبية التى ترفع السقوف لتضمن لها الأمن والاستقرار.

* * *

فى كثير من القبائل الإفريقية يرقص الإفريقى فى مناسبة الموت، حيث يعتقد أن دورة الحياة لا تكتمل إلا بالموت، أى بالعودة إلى عالم اللامنظور... عالم الأجداد والأسلاف.. عالم الخلود... وفى هذه العودة خير كبير!.

ولهذا يحتفل بموت الأقرباء والأعزاء بالرقص.... لأنها المناسبة التى سيعود فيها المتوفى إلى أرواح أسلافه وأجداده!

* * *

وفى بعض القبائل الأوغندية يتسم نظام التحية لديهم بالغرابة؛ إذ عندما يتلاقى صديقان يبسط أحدهما كفيه متجاورين، ويلمس الآخر بطنهما براحته، ثم تظل اليد تتحرك بينهما ذهابًا وجيئة عدة مرات، وخلال ذلك يتفوه كل منهما بكلمة تتبعها زمجرة أو تأوهات عميقة طويلة.

والأغرب من ذلك أن يكون وجه كل منهما منصرفاً عن الآخر.

ويتم الزواج لديهم من سن العاشرة، حيث تبلغ البنات الحلم مبكرات، ويفضل الأب الذرية من البنات؛ لأنه يتقاضى عنهن مهوراً عند زواجهن دون أن يقوم بتجهيزهن.

ويعد أفضل مهرجان يُقام للزواج هو الذى يستعان فيه بالرقص والطبول(١).

* * *

(١) أوغندا: محمد عبد المنعم يونس (بتصرف).

وفى قبائل «السوازى» بجنوب إفريقيا يرتدى الرجل ثوباً من جلد الأسد، فى حين ترتدى النسوة إزارًا يشبه «الجونلة» من جلد الأسد أيضًا.

والمألوف أن تغمس المرأة السوازية شعرها فى الصابون وتجعله على هيئة قلعة تحافظ عليها، فإذا ترملت قصت شعرها.

ومن عادات «السوازى» حمل السلاح، والتطبب ببعض الأعشاب، والاعتراف بالملكة الأم، فإذا ماتت خلفتها إحدى خالات الملك، ومن حقها أن تستشار فى الشئون الوطنية والسياسية.

وهم يعتقدون أن المطر نوعان: أحدهما من صنع الملك، وهو الغزير المصحوب بالبرق والرعد... والآخر من صنع الملكة الوالدة وهو المطر المعتدل(١).

* * *

وفى قبيلة «لاجبو» فى نيجيريا جرت العادة أن ترتدى النساء المقتدرات خلاخيل ثقيلة جدا وكبيرة، يصل قطر الواحد منها إلى ١٣ بوصة فى كل قدم، مما يجعل لهن على مدى الزمن مشية خاصة.

وغالبا ما تقلد هذه المشية من قبل نساء لا يملكن مثل هذه الحلية ليظهرن أنهن كن يرتدين مثل هذه الحلية الفاخرة فى يوم ما. ومن هنا لم يكن الاهتمام باقتناء الحلية ذاتها فحب بقدر الاهتمام بالحصول على هذه الطريقة فى المشى!

فى قبيلة «الفندا» فى اتحاد جنوب إفريقيا من الممكن للمرأة أن تتخذ لنفسها زوجة... فبعض النساء يتملكن أموالاً خاصة اكتسبنها عن طريق العمل أو

(١) جنوب إفريقيا: حسن محمد جوهر (بتصرف).

obeikandl.com

الهبة، وهن يستخدمن هذه الأموال فى الحصول على زوجات... ولكن الأغرب من ذلك أنه عندما تتزوج امرأة من امرأة أخرى فإنها تترك ابناً لها يعاشرها، وإذا لم يكن لها ابن أعطت الفتاة لأخ شقيق، وإذا لم يوجد فلأخ غير شقيق، وإذا لم يوجد أحد من هؤلاء فلقريب أدنى، أو حتى لرجل غريب يقوم من أجلها بتمكين الفتاة من الحمل والإنجاب(١).

* * *

فى بعض القبائل الإفريقية قد لا يدفع مهر، ومع ذلك يقام الزواج بين الرجل والمرأة، ولكن لا ينظر إليه بوصفه زواجاً بالمعنى الصحيح.. ويطلقون على هذا النوع من الزواج اسم «زواج الليل» ... أو «هبة النفس» تمييزاً له عن الزواج العادى الذى يتم بمهور.

من ذلك مثلاً ما يجرى به العرف لدى قبائل «النياموينزى» فى تنزانيا.. حيث يوجد نوع من الزواج تتم كل إجراءاته خفية، وفى ظلمة الليل، على خلاف الزواج العادى الذى تتم إجراءاته فى وضح النهار، حيث لا يدفع مهر فى زواج ظلمة الليل.

والمرأة التى يتم زواجها على هذا النحو تكون عادة أكبر سنا من الفتاة التى يقترن زواجها بدفع المهر.

وإذا قرر شاب الزواج من فتاة على هذا النحو أبلغها مباشرة، أو عن طريق إحدى النساء برغبته فى الزواج منها وعدم قدرته على دفع مهر فى الحال... وتوافق الفتاة ـ عادة ـ إذا كانت تميل إلى الشاب ولم تكن تتوقع

(١) يلاحظ أنه قد سبق أن ذكرنا صورة شبيهة لهذا الزواج الغريب لدى قبائل «داهومى» فى أواسط إفريقيا.. ولكن وجه الخلاف بينهما أن فى قبيلة «الفندا» التى نحن بصددها لا بد من التدرج فى درجة القرابة بالنسبة للشخص الذى يقوم بدور جماعها «التهجين»، بحيث لا يبدأ بشخص غريب طالما يوجد ابن أو قريب يستطيع أن يقوم بتلك المهمة!

معارضة شديدة من والديها... ويتم الاختطاف سرا بدون علم والديها، ويسارع الشاب إلى إرسال بعض الهدايا إليهما... ويسلم الوالدان ـ فى الغالب ـ بالأمر الواقع.

وفى هذا النوع من الزواج ليس للزوج أى حق على الأولاد، فهم ينتمون لجماعة الأم، وإذا رغب الزوج فى استعمال حقه عليهم، كان عليه أن يفتديهم بدفع بقرة مقابل كل بنت، وثور مقابل كل ولد.

ومن صور هذا النوع من الزواج زواج يسمى «هبة النفس»، وفى هذا النوع من الزواج أيضًا لا يدفع مهر من أجل الفتاة.

وبدلا من أن يأخذ الرجل الفتاة إلى بيته يأتى هو ليقيم معها فى جماعتها.. والأبناء الذين يولدون من هذا الزواج لا يتبعون الزوج، وإنما يخصون جماعة أمهم. وللأب الحق فى أن يفتدى أولاده، حيث يبذل المستحيل لجمع المهر اللازم لتصحيح علاقته بزوجته وأولاده.

ومن المألوف أن يتم الزواج باتفاق الطرفين المعنيين، وهما: الراغب فى الزواج، وأهل المرأة... ومع ذلك ففى بعض القبائل الإفريقية من الممكن أن ينعقد الزواج رغماً عن إرادة أهل المرأة!

* * *

فى «سوازيلاند»(١) يعتبر الملك رمز الصحة والإخصاب؛ ولذا تزوج ملكها السابق «سوبوزا الثانى» الذى أطلق عليه لقب أسد سوازيلاند العظيم من ١١٢ امرأة، أنجبن له ما لا يقل عن ٦٠٠ من الأبناء، سعد الملك والشعب بهم كثيراً.

(١) سوازيلاند مملكة إفريقية صغيرة لا تزيد مساحتها على ١٧ ألف كيلو متر مربع، تقع بمنطقة جبلية فى الطرف الجنوبى لقارة إفريقيا، وتكاد تقع بأكملها داخل إقليم دولة جنوب إفريقيا، فيما عدا مسافة طولها ٧٠ ميلاً بمحاذاة حدود موزمبيق.

وبعد وفاته[1] تولت آخر زوجاته والتى يطلق عليها اسم «الفيلة الكبرى» ـ الحكم حتى تنفذ التقاليد التى تقضى بأن يتولى الابن الأكبر لآخر زوجات الملك مقاليد الحكم، وهو يتم فى احتفال مهيب على الطريقة الإفريقية، حيث يتم تتويجه ثم تنصيبه وفق الطقوس المعمول بها منذ ثلاثة آلاف سنة.

وفى الاحتفال يرقص الملك برداء النمر وتاج الريش مع محاربى المملكة الأشداء... ويلقى رئيس وزراء سوازيلاند بيانه بالزى الوطنى لبلاده، المكون من عباءة ملونة تلتف حول جسده العارى، وخلخال يزين قدميه، وتاج على رأسه يشبه تمثال الحرية الأمريكى...

ولأن ملك سوازيلاند هو رمز الصحة والخصوبة، فيحرص الملك الشاب فور اعتلائه العرش على اختيار شريكة حياته الأولى... ويقع اختيار الأسد على فيلته[2] الأولى بعد أن يشاهد الاستعراض الذى تشترك فيه ألف فتاة عذراء من فاتنات المملكة... ويختار الملك ـ بعد استشارة الخاطبة ـ الفتاة الحسناء فيلة له.

وطبقا للتقاليد لا يقترب الملك من فيلته إلا بعد مضى ثلاثة أشهر من الزواج، حتى يتأكد الجميع أن المولود الأول له سيكون من دم ملكى.

وفى مملكة «سوازيلاند» الصغيرة ينتشر نحو خمسة آلاف من السحرة والمشعوذين وأدعياء الطب الذين يستخدمون وصفة للعلاج يطلق عليها اسم عام هو «موتى»... وإن كان المزيج أوالخليط المستخدم فيها يختلف من ساحر لآخر، ومن مشعوذ لداعية طب... فمن هؤلاء من يلجأ إلى استخدام اللحم البشرى الحى لشفاء مرضاه، ويطلق على كل هذه الفئة من المشعوذين وأدعياء الطب اسم «تينيانجا».

---

(١) وقد توفى منذ بضع سنوات عن ٨٣ عاماً، عاش منها ٦٢ سنة كحاكم فردى للبلاد.

(٢) أى زوجته.

ومن الغريب أن جثث الموتى لا تستخدم فى شفاء المرضى فقط، وإنما أيضًا فى مداواة الجراح العاطفية، وفى جلب الحظ، واكتساب محبة الناس، وحل المشاكل المالية والعائلية[1]، غير أن جلسات السحر الأسود وما يتخللها من قبل بعض الأشخاص تثير قلق المسئولين فى سوازيلاند، حتى إنها وصفت هذه الظاهرة بأنها سرطان حقيقى.

* * *

عند قبائل غرب إفريقيا لا تتزوج الفتاة إلاَّ إذا حملت سفاحاً، وبذلك يثبت لزوجها أنها غير عقيم!

* * *

وفى بعض جزر المحيط الهادى تخالط الفتاة الشاب فى بيت العزاب فترة قبل الزواج، ولا عيب عليها فى ذلك!

* * *

وفى قبيلة «التوبورى» الإفريقية إذا خانت المرأة زوجها ترغم على أن تضع حول رقبتها حلقة من النحاس، وذلك بقية أيام حياتها، فتكون خيانتها بذلك أمام عينها وأمام عيون الأخريات، وتكون عبرة بالتالى لباقى الزوجات!

* * *

وفى إحدى قبائل جزيرة سيلان إذا ما وضع الرجل شريطاً أحمر حول عنقه يكون معنى ذلك أنه يرغب فى فراق زوجته شهراً. وإذا وضع شريطين فإنه يرغب فى فراقها سنة كاملة... أما إذا وضع ثلاثة أشرطة فإنه بذلك يريد أن يطلقها!

* * *

(١) يؤكد الناس فى «مبابان» عاصمة سوازيلاند أن الملك الراحل، والذى دُفن فى كهف سرِّى فى أغسطس عام ١٩٨٣ كان يتناول كل صباح قطعة من جثث الموتى يصنعها له كبير السحرة.

جرت العادة عند بعض العشائر فى كينيا أن ينام طفل صغير مع العروسين فى ليلة زواجهما الأولى، وذلك حتى يصبح زواجهما خصيبًا!

* * *

وفى قبيلة «داهومى» نوع من أغرب أنواع الزواج، هو زواج بين النساء، أى أن امرأة تتزوج امرأة أخرى، حيث تتزوج امرأة مسنة وتدعى «الزوج» بعدد من الفتيات اللاتى يصغرنها سنا وتعولهن فى كوخ من مجموعة أكواخ تملكها... ثم تدعو رجلاً تنتخبه كزوج بديل.

وينصب دور كل فتاة فى أن تلد أكبر عدد ممكن من الأطفال الذين ينتمون ـ كما يجرى العرف ـ إلى المرأة المسنة، وليس على الزوج فى هذا النوع من الزواج أية مسئولية عائلية، فهو مجرد أداة لإنجاب الأطفال.

هذا، وينصب الغرض من هذا الزواج على عملية تركيز الثروة وعدم تفتيتها والسيطرة على عدد ضخم من الأبناء يكفلون القوة إلى جانب الثروة.

* * *

* عادات وتقاليد لدي بعض القبائل الآسيوية:

* قبائل «البلوش» بباكستان(١) تتميز بعادات وتقاليد عريقة متوارثة حتى يومنا هذا، حيث يحرص «البلوشى» على تعليم ابنه منذ طفولته احترام تلك التقاليد والتمسك بها.

---

(١) «البلوش» شعب قبلى مسلم بعيد عن التعصب العرقى، فهو عبر تاريخه عاش مع وإلى جانب أقليات عرقية ودينية مختلفة، ولكنه لم يدخل فى أى من الصراعات معها، وكانت علاقاته بها دائما سلمية وأخوية... ويرجع أصل «البلوش» إلى حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم.
ويتمتع اليوم البلوش فى باكستان بنوع من الاستقلال الإدارى، يعطيهم مبدئيا الحق فى انتخاب قياداتهم المحلية فى منطقة تسمى «بلوشستان» التى تعد أفقر الأقاليم الباكستانية وأقلها تطورًا.

وقد كتب العديد من المؤرخين والرُّحَّل الذين زاروا المنطقة عن «البلوجمیار» أى مجموعة التقاليد والأعراف غير المكتوبة، ذات الأركان التسعة، وقوامها: الثأر، والحماية، الكرم، والسماح، والشرف، ومساعدة الضعيف، والثقة، والإبقاء على الوعد، والتوبيخ عند الخطأ. وهى قيم لا يتنازل عنها «البلوشى»؛ لأنها فى حساب شرفه وكرامته(١).

هذا، وتتعارض هذه الشرائع القبلية فى كثير من الأحيان مع قوانين الدولة ومبادئها الحديثة، مما يسبب تصادمات بين القبائل والسلطة، ومن المعروف أن «البلوش» يتميزون بشراستهم فى القتال وفى الثأر. وكان المستعمرون الإنجليز فى القرن التاسع عشر والقيادات الوطنية الحديثة قد حاولت محاربة تلك التقاليد أو تعديلها، فجرى مثلاً سَنُّ قانون يستبدل فيه بالثأر جزية مالية يدفعها أهل القاتل لأهل القتيل، فلم تقبل مثل هذه القوانين التى ترفضها شريعتهم وعاداتهم التقليدية.

وجدير بالإشارة أن شراسة «البلوشى» لا تتجلى فى الثأر والانتقام فحسب، وإنما ـ أيضًا فى قيم إنسانية هامة، مثل حماية الضعيف، والمحتاج، وإكرام الضيف، والدفاع عنه، والحفاظ على الوعد، والكلمة وحفظ الأمانة.

ويقال: إنك يمكنك أن تأتمن «البلوشى» على أى شىء، فهو إن أعطى وعدًا استمات فى الحفاظ عليه، فمن المعروف أن «البلوشى» إذا أتاه من يطلب حمايته ـ صديقًا كان أم عدوا ـ فهو يفعل المستحيل من أجل إكرامه وحمايته(٢).

---

(١) لقد جاء فى إحدى القصائد البلوشية تلك الأبيات التى تعكس نفسية «البلوشى»:
«بعضهم يموت من أجل الشرف والكرامة . . وغيرهم يحيا من أجل رغيف خبز.
لكن من يودع زوجته الجميلة ليثأر لشرفه . . لا يطلب جاهًا ولا مالاً».

(٢) يحكى أن غريباً جاء ديار إحدى القبائل وطلب من شيخها حمايته من أعداء يلاحقونه، وبعد أن قبل الشيخ حمايته ضيفه وأسكنه خيامه جاء إليه ابنه يخبره أن الضيف ما هو إلا قاتل =

هذا، وقد جعلت العوامل الطبيعية القاسية من «البلوشى» إنساناً شرسًا، صلبًا، مضطرا للدفاع عن نفسه، والصمود أمام أصعب الظروف، ولكنها ـ فى الوقت نفسه ـ منحته قلبًا كريماً يدفعه لاستقبال المشرد، والتائه، والخائف الذى يطلب الحماية، وتكريمهم تكريمًا يليق بأرفع الضيوف منصبًا(١).

* * *

* **قبيلة «الهونزا»(٢):**

تعيش قبيلة «هونزا» على حدود أفغانستان وكشمير فى بقعة جبلية ضيقة، وتتميز بعادات وتقاليد تفرضها ظروف الطبيعة التى تحيط بها... فالشتاء شديد الوطأة، ولا سيما الرياح الباردة التى تهب على القرى من أعالى

= أخيه، أى ابن الشيخ نفسه. ولكن الشيخ الوالد رفض إيذاء ضيفه قائلا: إنه قطع على نفسه وعدًا بحماية الرجل، ولن يتنازل عنه... فانتظر الابن حتى جاء الليل وانسل إلى خيمة الضيف وطعنه بالخنجر انتقامًا لأخيه. وفى الصباح عندما استفاق القوم وعرفوا بما جرى، غضب الشيخ غضباً شديدًا، واعتبر أن ما جرى إهانة لشرفه، فقتل ابنه غسلاً للعار.

ويحكى أيضًا أنه فى عام ١٩٥٧ أثناء حكم أحمد شاه فى إيران ـ هرب معارض من إيران إلى «بلوشستان» إقليم «البلوش»، ولكن اعتقلته السلطات الباكستانية ثم سلمته لإيران فأثار اعتقاله وتسليمه حفيظة «البلوش» على أساس أن المعتقل كان فى حمايتهم، واعتبر تسليمه خيانة للوعد، وكسرًا للتقاليد والأعراف، وقامت ثورة تطالب بالاستقلال البلوشى.

(١) مجلة الشرق الأوسط الصادرة فى ١٨/٣/١٩٩٢ (بتصرف).

(٢) كانت «الهونزا» قبل تقسيم الهند تابعة لولاية كشمير، وخاضعة لحكومة الهند المركزية.. وكان اسم «هونزا» يطلق على النهر الذى يخترق البلاد، ثم أطلق على البلاد نفسها وعلى الشعب الذى يسكنها... ويقطن «الهونزا» الذين يبلغ تعدادهم حوالى ثلاثين ألف شخص ـ مائة وخمسين قرية.. ويتراوح ارتفاع هذه القرى عن سطح الأرض بين ١٦٠٠ و ٢٤٥٠ مترًا، ويعيش «الهونزا» فى عزلة تامة عن العالم، وأقرب الناس إليهم فى كشمير بعيدون عنهم بنحو خمسمائة كيلو متر، تقطع على ظهور الخيل أو البغال، حيث لا تصلح الطرقات للعربات، أو السيارات.

وتسمى عاصمة «الهونزا» «بلتيت»، وهى قرية كبيرة كائنة فى سفح جبل يتسلقه السكان من خلال طرقات ضيقة محفورة بين الصخور.

الجبل، وتجعل الحياة محفوفة بالمصاعب، مما يضطر السكان إلى البقاء داخل منازلهم مدة ستة أسابيع أو أكثر عندما يبلغ البرد أقصاه.

وبيوت «الهونزا» مؤلفة من قاعة واحدة تضيق أو تتسع حسب عدد أفراد العائلة، ففى تلك القاعة الضيقة أو الفسيحة يقيم الجميع، الأب والأم والأبناء والأزواج والعجائز، وهم يوقدون النار داخل القاعة لإعداد الطعام لا للتدفئة؛ لأن الوقود نادر(١).

وفى الصباح يقود أحد أفراد الأسرة الماشية إلى النهر لتشرب، ويحمل هو معه ما يلزم من الماء لبقية أفراد الأسرة.

وفى المساء تعتبر اجتماعاتهم العائلية داخل بيوتهم أشبه بمدرسة يتعلم فيها الأولاد لغتهم وواجباتهم.

أما تعلم القراءة والكتابة فلا أثر له بين «الهونزا» فليس بينهم أكثر من واحد فى المائة يمكن أن يقال إنه متعلم... والمتعلمون القلائل ـ يقيمون فى القرية الكبيرة «بلتيت» ـ العاصمة ـ وهم أفراد أسر الأمير، والوزراء، والحكام، أما غير المتعلمين فيتجهون إلى مزاولة الرعى وبعض الزراعات والأعمال اليدوية(٢).

ومن أهم ما يتصف به أفراد «الهونزا» القناعة فى المأكل والملبس التى تعتبر من أهم أسرار السعادة وسلامة الجسد لديهم. وهم ينظرون إلى شظف العيش الذى يعانون منه على أنه أمر ضرورى أرادته السماء، فيأخذون الحياة كما هى، ولا يتبرمون ولا يشكون من شىء.

---

(١) «الهونزا» تستخدم الخشب والحطب والعيدان اليابسة لإشعال النيران، حيث إن البترول والفحم لا أثر لهما عندهم... وهم يعتبرون فقراء، فليس عندهم من الثياب الكثير، فمن الممكن أن تستخدم الأسرة معطفًا واحدًا وحذاءً واحدًا يتناوب أفرادها استعمالهما عندما يخرجون من بيتهم!

(٢) مجلة الكويت فى عددها الصادر فى مارس ١٩٩٠ (بتصرف).

ويعتنق «الهونزا» الإسلام، إلا أنهم انحرفوا عنه بالانتماء لطائفة «الإسماعيلية»(١)، فلا يقيمون الصلاة، وليست لديهم أماكن معدة للعبادة، وليس عندهم كتب دينية يطالعونها، وهم لا يحفظون شيئًا من الآيات القرآنية، وليس عندهم دعاة أو أئمة يؤمونهم فى الصلاة؛ لأنهم لا يصلون علنًا، بل يلزمون الصمت بضع دقائق، ويطلبون من الله تعالى أن يمنحهم عونه ورضاه، وذلك فى داخل بيوتهم، حيث يقيمون اجتماعات يسمونها دينية، وهى فى الواقع غير ذلك... فالكبار فى هذه الاجتماعات يبذلون للصغار نصائحهم(٢) لمواجهة متاعب الحياة، ويعلمونهم كيف يَنْشَئُون على الصدق والأمانة، والبعد عن المنكرات.... والرجل الذى يرأس تلك الاجتماعات يسمى «خليفة» بدون أن تكون له ميزة ينفرد بها عن غيره، فهم - إذن - لا يعتنقون ديناً من الأديان المعروفة، فهم لا يصلون، ولا يذكرون الله، ولا يصومون، ولا يمتنعون عن أى نوع من أنواع الطعام إذا كان فى متناول أيديهم!

---

(١) لا يعتبر «الهونزا» من الإسماعيليين الملتزمين، فكل ما يفعلونه أنهم يوفدون رسولا منهم كل عام إلى مدينة «بمباى» حيث يقيم «الأغاخان» ليدفع إليه العشور المقررة على بلادهم. فمن المعروف أن الإسماعيليين يدفعون كل عام جزءًا من عشرة من دخلهم إلى زعيمهم الأعلى.. والهونزا يحترمون هذه القاعدة، وإن كانوا بعيدين عن التمسك بالعقيدة الإسماعيلية كما ينبغى.

ويلاحظ أن انتماء «الهونزا» إلى الطائفة «الإسماعيلية» قريب العهد، فقد كانوا من قبل يعدون أنفسهم من الشيعة ، ثم اتجهت أنظارهم إلى الهند حيث مقر الإسماعيليين، وانضموا إليهم.

(٢) من تلك النصائح التى تتضمنها حكايات يحكيها الكبار للأطفال حكاية «نيمو» وهى فتاة صغيرة عهد إليها السهر على الماشية وإعادتها إلى الحظيرة، وقد حدث ذات مرة أن تاهت عنزة من القطيع الصغير، فلم تبحث عنها «نيمو» وتركتها خارج الحظيرة، فافترسها الذئب، وكانت النتيجة أن حرمت الأسرة من لبن العنزة وصوفها، فحزنت «نيمو» وشنقت نفسها فى غصن شجرة... وهذه القصة يرويها الكبار للصغار ليدخلوا في روعهم أن الفتاة ماتت لأنها لم تقم بواجبها، وأن القيام بالواجب لا ينبغى التهرب منه.

وينصرف نشاط «الهونزا» إلى التفكير فى الحياة الدنيا، وكيفية البقاء وضمان الرزق ليومهم، وهم يرددون أن الله موجود، وأنه حى دائم، وهو ساهر عليهم، وأنه رحمن رحيم.

وهذه الحالة النفسية تجعلهم بعيدين عن كل قلق واضطراب وخوف، فيعيشون هادئين مطمئنين، يقنعون بما قُدِّرَ لهم، وبما منحتهم الأقدار من خيراتها، قلَّت أو كثرت.

والأراضى موزعة فى «الهونزا» توزيعاً عادلاً على السكان. والضرائب عندهم ليست خاضعة للقوانين السائدة فى البلدان الأخرى، بل إن هناك نظامًا خاصا لا إجحاف ولا إرهاق فيه، فالناس لا يدفعون ضرائب، بل يقدمون هدايا. والمعاملات تتم فيها بينهم بالمقايضة، فهذا يأخذ بقرة مقابل ثلاثة خراف، أو قطعة جبن مقابل بعض التمر المجفف، وهكذا؛ ولذا تعد النقود نادرة عندهم؛ لأنهم لا يحتاجون منها إلاَّ إلى القليل.

و«الهونزا» تهتم بتربية الماشية التى يستغلون صوفها ولبنها، ويأكلون الحيوانات المتقدمة فى السن، حتى الخيول والبغال منها. وهم لا يذبحون الحيوان إلا عندما يصبح غير صالح للعمل ويكون لحمه قد شاخ وفقد كثيرًا من خواصه المغذية؛ ولذا يعد أكلهم للحوم نادرًا.

ولا يهتم «الهونزا» بتربية الدواجن لعدم توافر الحبوب لغذائها. كما لا يتوافر لديهم الأسماك؛ ومن ثم كان اعتمادهم على ماشيتهم، وكل أسرة تمتلك نحو عشرين رأسًا من البقر والماعز والخراف.

ويحافظ «الهونزا» على تقاليدهم، ولا يؤذى بعضهم بعضًا، ولا يفكر أحد منهم فى الاعتداء على الآخر، ولا يقدمون على عمل لا يقره الرأى العام، ويحرصون على الالتزام بمواعيدهم والقيام بواجباتهم.

ويتميزون بروح المرح، وكثيرًا ما يضحكون. . . وإنَّ أقل الحوادث شأناً تتحول سريعًا إلى عيد، يعم فيه المرح والسرور، فذهاب راع صغير إلى الجبل بقطيعه الصغير عيد كبير. . . ومولد طفل صغير فى قريته عيد كبير. . وزواج فتاة عيد كبير، وجمع الأزهار وحصاد القمح عيد كبير(١).

ومن عاداتهم المألوفة. . «الزواج بالجملة» حيث يتواعدون فيما بينهم لكى يحتفلوا بزواج الفتيان والفتيات فى يوم واحد. . . ثم يخرجون فى يوم معين إلى ساحة القرية ليستقبلوا مواكب العرائس ليقدموهم لسكان القرية بالجملة، ويكون ذلك اليوم من الأيام المشهورة لديهم.

وللمرأة عند «الهونزا» مقام لا يختلف فى شىء عن مقام الرجل الذى لا يداخله شك فى سلوك زوجته أو ابنته أو أية امرأة من أسرته، حيث لا يتبادر إلى ذهنه أنها يمكن أن ترتكب سلوكاً يخالف الحياء والشرف، أو يتعارض مع العرف والتقاليد.

ولذا قد يسافر الزوج إلى خارج بلده بضعة أسابيع أو أشهر، فيترك زوجته وديعة عند جاره بدون أن يفكر الجار فى سوء، وبدون أن تخشى المرأة شيئاً، وبدون أن ترى زوجة الجار ما يدعو إلى الريبة فى بقاء تلك المرأة ضيفة عند زوجها، وفى بيتها المكشوف الذى لا يزيد على قاعة واحدة. . . ومما يشجع على ذلك أن المرأة أكثر حشمة، فلا يظهر من جسدها شيئاً سوى كفيها.

والرجل لا يتزوج غير امرأة واحدة، ولا يفرض عليها قيدًا من القيود، بل إنها تروح وتجىء بكامل حريتها، وتقابل فى بيتها الزائرين، سواء أكان زوجها حاضراً أم غائباً، ولا أحد يساوره شك فى سلوكها.

وقد جرت العادة فى قبيلة «الهونزا» ألاَّ تلد المرأة إلا مرة كل أربع أو خمس سنوات، بحيث لا تشغل نفسها بأكثر من طفل واحد لا يقوى على المشى.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

وعندما يبلغ الطفل الثالثة من عمره تعهد به أمه إلى أخيه أو أخته التى تكبره. . . فالأطفال الكبار هم الذين يعنون بتربية وتدريب الصغار شيئًا فشيئًا، حيث يحمل الكبير الصغير على ذراعه، أو يجرى معه فى الطرقات، أو يتسلق الجبال حاملاً إياه على كتفه، ويعلمه كيف يأكل ويشرب، أو يؤهله ـ بوجه عام ـ للاضطلاع بالأعمال التى تنتظره فى المستقبل.

أما الأم فإنها تراقب أولادها، ولا تتدخل مطلقاً فى الطريقة التى ينشئون عليها، معتمدة على الكبار فى العناية بالصغار(١).

ويطلع الطفل على أسرار الحياة ومقتضياتها شيئاً فشيئاً، وبدون أن يتعمد أحد تلقينه إياها، فهو يعيش مع بقية أسرته فى حوش الدار أو القاعة الوحيدة، فينشأ نشأة طبيعية، ويعرف كل شىء مما يجب أن يعرفه بإصغائه إلى كبار أفراد الأسرة وهم يتحدثون.

وقد يتبادر إلى الذهن أن زواج الأطفال شائع عند «الهونزا»، كما هو الحال عند الهنود جيرانهم. . .

ولكن الواقع غير ذلك، فالزواج لا يتم عند «الهونزا» قبل الثامنة عشرة أو العشرين. . والشاب يختار زوجته بمحض إرادته لتمسكهم بمبدأ أن الحياة قائمة على الحرية. . وأن هذه الحرية تتنافى مع أمرين: الضغط على الإنسان. . . والانزلاق عن السبيل السوى.

ولذا فنادرًا ما يحدث بين أفراد الأسرة مشاحنات بين الرجال والنساء، أو بين النساء الكثيرات، فالتقاليد المتوارثة جعلت القوم يألفون المحبة والتغاضى عن الإساءة، والامتناع عن كل ما يزعج القريب أو البعيد، مما يضمن الراحة والهناء، ومن هنا تكون الصداقة هى أساس العلاقات بين الناس جميعًا داخل الأسرة وخارجها.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

ومن العادات الغريبة التى تتميز بها قبيلة «الهونزا».. احتفالهم بعيد «النيروز» فيوقدون النيران فى ذلك اليوم طوال الليل، ويرقصون حولها ويغنون ويتضاحكون(١).

وفى هذا العيد أيضاً يحرصون على ممارسة ألعاب السيف والترس حول النار، ويتبارى فيها الشبان والكهول، فى حين تصفق النساء لهم استحساناً وتشجيعًا(٢).

* * *

جماعة «الفيزو»(٣):

جماعة «الفيزو» فى جنوبى غرب مدغشقر... ومن مظاهر احترامهم للمقابر والأموات أنهم يرقصون حولها، ويرمون أثمن ما لديهم من مرجان ملون زهدًا فى الحياة... ويعتبرون أن المرء لا يصل إلى حكمته الإلهية إلا بعد أن يصبح ميتًا.

ويعتقدون أن الروح ـ بعدها ـ تهيم فى البحار، تفتش عن الأفق الأزرق، وعن معنى وجودها عندما كانت أسيرة الجسد، حيث ينظرون إلى الحياة كرحلة عابرة.

كما يعتقدون أيضًا أن «المرجان» الذى يصطادونه من البحار كان حيواناً خطرًا يأكل البشر، وقد تم ترويضه ليكون كائناً أليفًا من خلال أجدادهم الأقدمين!

---

(١) قد تكون عادة إشعال النيران والرقص حولها أثراً باقياً من العصور القديمة، أى قبل دخول الإسلام إلى تلك البلاد، عندما كان «الهونزا» ينتمون إلى «المجوسية» المنتشرة فى إيران فى ذلك العهد.

(٢) المرجع السابق (بتصرف).

(٣) يعرفون أيضًا لدى سكان المنطقة بـ «غجر البحر»، وهم يعتمدون فى معيشتهم على صيد الأسماك والمرجان، وطعامهم الأساسى هو الأسماك.

ومن عادات «الفيزو» أنهم عندما يبحرون فى القوارب والزوارق لابد أن يصحبهم «شيخ الجماعة»؛ لأنه هو القادر على أن يقرأ السحب ويكشف عن نوايا الرياح، ويحدد أوقات الإبحار الثمينة للصيد، كما يحدد موسم العواصف.

وحين يعطى «شيخ الجماعة» أمره بالإبحار ويستقل معهم زورقًا، تبدأ الصلوات لأرواح الأجداد، فهى وحدها ـ فى اعتقادهم ـ التى تجعل رحلتهم آمنة ومنتجة.

ويعتقدون أن «شيخ الجماعة» وحده يعرف أين تكمن الأرواح الشريرة وسط البحار، أو الأرواح الخيرة التى يسمونها أرواح «التسومبا» المؤلهة... والجميع يعتمد على خبرة هذا الشيخ وبصيرته، فضلاً عن أنه أكثرهم ثراء.

ويرون أن أى خلل فى بصيرة «شيخ الجماعة» ونظرته للأمور مرده إلى خطئهم هم، فهم لم يؤدوا تمامًا طقوسهم التقليدية التى نص عليها الأجداد وفرضوها كما ينبغى.

أما إذا حدث أى خلاف بين أفراد جماعة «الفيزو» ـ وهذا نادرًا ما يحدث ـ فيلجئون إلى «شيخ الجماعة» الذى يبدأ بصلاته للأجداد حتى يصلح أمرهم، ويحد من غضبهم.

فمن المعروف عن «الفيزو» اتحادهم وتكاتفهم وتعاونهم بعضهم مع بعض... فالجماعة هى الواحد، والواحد فى الجماعة.

ومن عاداتهم المتميزة أنهم لا ينامون إلاَّ حين يتراجع البحر، ويفترشون الرمال الرطبة بعائلاتهم وأطفالهم الذين يلهون حيث الشاطئ يشكل بحيرة طافية، أما النوم لديهم فلا يعرف الليل أو النهار، إنما يحدث حيث يتسنى لهم، وحين يتراجع البحر، عندئذ يرفعون «الألوكى» وهى قطعة قماش يمددونها على صوارى السفن حتى تحميهم من حدة الشمس.

وهم يملكون «تخشيبات» هى بمثابة بيوت من القصب ينامون فيها فى فصل الأمطار والإعصار، وما عدا ذلك فبيوتهم هى زوارقهم الشراعية.

وفى مواسم محددة، وحين يندر وجود المرجان يذهب «الفيزو» إلى اصطياد «الأخطبوط» و«توتياء البحر»، ويصطحبون معهم نساءهم الماهرات فى اصطياد صدفة نادرة تدعى «المينافافا»، والمرغوب فيها جدا لدى تجار المدن.

وتتسلح النساء بآلة تسمى «الخطاف»، ويسبرن بدون توقف قعر البرك الصغيرة التى تتركها الجزر وراءها، حيث ترفع النساء أذرعتهن ويخفضنها باستمرار وبدون توقف، وينتظرن اللحظة التى يسمعن فيها الصوت الرنان الذى ينذر باصطدام قطعة الحديد بالصدفة.

وهناك شهران فى السنة يكفون فيهما عن الإبحار فى القوارب، ويسمونهما بلغتهم فصل الأعاصير، يتسلقون ـ أثناءهما ـ نهر «المانفوكى» ويستبدلون مع المزراعين بسمكهم المجفف مواد غذائية أخرى.

وتعتبر جماعة «الفيزو» أن التمسك بعاداتهم وقوانينهم من الأمور المقدسة، لاعتقادهم الراسخ أن أرواح الأجداد تراقب وتعاقب بالموت أو المرض كل من يخالفها(١).

* * *

*** نُظُم وعادات لدي قبائل متفرقة:**

* من عادات الأسر الألبانية التى تسكن الجبال أنه إذا قُتل أو مات آخر رجل فى الأسرة، حرمت كبرى بناتها الزواج على نفسها وارتدت ملابس

(١) مجلة «الشاهد» فى عددها الصادر فى يونيو ١٩٩١ (بتصرف).

الرجال، وعاشت كما يعيشون، حيث إنها تتولى قيادة الأسرة. وفى حالة قتل رجال الأسرة يصبح همها الأول الأخذ بالثأر.

* * *

* إن الرجل من قبيلة «البابوا» فى غينيا الجديدة يشترى زوجته، ويُقدر ثمنها حسب وزنها؛ ولذلك كانت الفتاة تزيد من وزنها بتثبيت حلقة معدنية ضاغطة فى أعلى ذراعها تجعل العضلات تنتفخ على جانبيها. ومن العادات الشائعة فى شروط الزواج فى تلك القبيلة أن تخوض الفتاة فى الماء بعد أن تتأكد من أن خطيبها قريب منها فى مكان ما، وتخلع عن جسمها «جونلة من القش»... ويتم طلب الزواج عندما يقدم لها خطيبها جونلة جديدة.

* * *

* وفى قبيلة «فالكليجا» لا تستطيع أية فتاة أن تتزوج إلا إذا أحضرت لخطيبها عقلتين من إصبعين من يد أمها اليمنى.. ويعد هذا دليلاً على قبولها الزواج منه.

* * *

* وفى قبيلة «بوندا يورجاس» تختبر الفتاة الشاب الذى يريد الزواج منها، حيث تصحبه إلى الغابة وتشعل النار وتكوى بها ظهره العارى، فإذا تأوه من الألم أو توجع من النار رفضته، بل وفضحته بين البنات، وإذا لم يئن ويتوجع فهو الخليق منها بالحب والزواج.

* * *

* وفى بعض بقاع إندونيسيا ممنوع على العروس أن تسير على الأرض حين تنتقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها، ويلتزم أبوها أو من ينوب عنه بحملها على كتفيه مهما طالت المسافة!

* * *

* وفى مستعمرة «يورنيو»، وفى قبائل «الكابيت»، تغازل المرأة دائماً الرجل وتسعى لخطبته من أهله. . وقد جرت العادة بين أهل هذه القبائل أن يلزم الزوج المخطوب بترك أهله والعيش مع أهل زوجته.

* * *

* وفى جزيرة «الإندامان» بإندونيسيا يرتدى البالغون قلائد من عظام آدمية بشرية، حيث يعتقد أنها تمنح الإنسان الحى طاقة المتوفى وقدراته، فضلاً عن كونها حرزاً أو حجاباً ومانعاً مضاداً للقوى الشريرة.

والطريف أن هذه الحلى المصنوعة من العظام الآدمية تنتقل من منطقة إلى أخرى، حتى إذا ما دخلت نطاق التجارة تحولت إلى سلعة متداولة برؤية مختلفة بين البائع والمشترى، أى تحولت من كونها تعويذة لاتقاء الأرواح الشريرة أو حجاباً للشفاء إلى قطعة من الحلى من أجل الزينة.

* * *

* وفى قبائل «المابوشى» الهندية فى شيلى جرت العادة على ارتداء النساء لقلائد وعقود مزينة بدلايات من العملات يمكن أن ترتدى كإكليل حول الجبهة، أو تُعلق حول الرقبة لتنساب على الصدور.

* * *

* وعند قبيلة «السوبان» من هنود البرازيل الوسطى يرتدى النساء والرجال على السواء أقراصًا كبيرة فى آذانهم. وهذه الأقراص تُصنع من سعف النخيل المطوى.

وينفرد الرجال بوضع الأقراص داخل الشفة السفلى للفم، حيث يصبغ سطحها وجوانبها باللون الأحمر.

هذا، ويرجع اهتمامهم بالأذن إلى معتقدات تتعلق بالسمع وترمز له الأذن، والكلام ويرمز له الفم. . . فللأذن قيمة أخلاقية، حيث إنها تدل على المواطن الصالح الذى يتحلى بالفضائل، وهذا ما يدفعهم إلى تزيين الأذن وتطوير شكلها الخارجى(١).

* * *

* عند قبيلة «البابو» فى غينيا الجديدة أيام التزيُّن الاستعراضى الكبير الذى يقترن بالمناسبات والأحداث، وفيها يظهر المتزينون أمام المتفرجين بكامل زينتهم.

وقد تكون المناسبة يوم المقايضة، أو الأعياد، أو إرسال حملة عسكرية، ويصاحب هذا استعراض غنائى راقص.

وجدير بالإشارة أن الرجال فيه يتباهون بأنواع من ريش الطيور والقواقع والأصداف والودع، ويصبغون أجسادهم بأنواع مختلفة من الدهون والأصباغ الملونة، حيث إن هذه المهرجانات مقصورة على الرجال فقط وزينتهم.

ولهذا يقضى رجال القبائل وقتاً لا يُستهان به فى سبيل جمع وإعداد هذه الزينة والحلى، وتوفير الدهون والأصباغ اللازمة.

هذا، ويستمر المهرجان عدة أيام، مما يدفعهم إلى اتخاذ زينة مختلفة لكل يوم من أيامه.

وفى أغلب الأحيان تتجمع عدة عشائر للاحتفال بهذا المهرجان الكبير وتشترك فيه كجماعات منفصلة، حيث يبدو التنافس بين هذه العشائر بعضها وبعض.

* * *

(١) مجلة الكويت، عدد مايو ١٩٩٣ (بتصرف).

* وعند قبيلة «الواجى» يمنع أفراد القبيلة من الاشتراك فى الحروب والغزوات إن لم تكن زينتهم تامة وفوق المستوى؛ ولذا يعد المهرجان فرصة سانحة للتعرف على إمكانيات كل عشيرة واستعداداتها وحالتها النفسية.. إن كان أفرادها يتمتعون بمعنويات مرتفعة أو محبطين. ومن جراء ذلك تمنع المجموعة ذات الزينة الهابطة والبسيطة من الاشتراك فى الحروب؛ لأنها تدل على ضعفها وضعف معنويات أفرادها.

وعند قبيلة «مانهاجن» تعد الزينة والأصباغ وسيلة للتنكر وإخفاء شخصية المتزين، حيث ينصب الاهتمام على زينته، بِغَضِّ النظر عن شخصه وشخصيته، أو على جسده، ولا حتى أى جزء منه؛ وذلك لتذوب الفوارق بين المتزين وسائر أفراد القبيلة فى زى وزينة موحدة تظهرهم كلهم كرجل واحد له صفاته المتميزة الراقية، والتى تدل على روحه المعنوية العالية[1].

* * *

(١) المرج السابق (بتصرف).